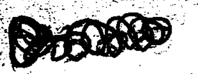
تأليف: شموئيل شيغف

وحيداً في دمشق



القصة الكاملة لأكبر
جاسوس إسرائيلي
"إيلي كوهين"
اسرار خطيرة تكشف لأول مرة

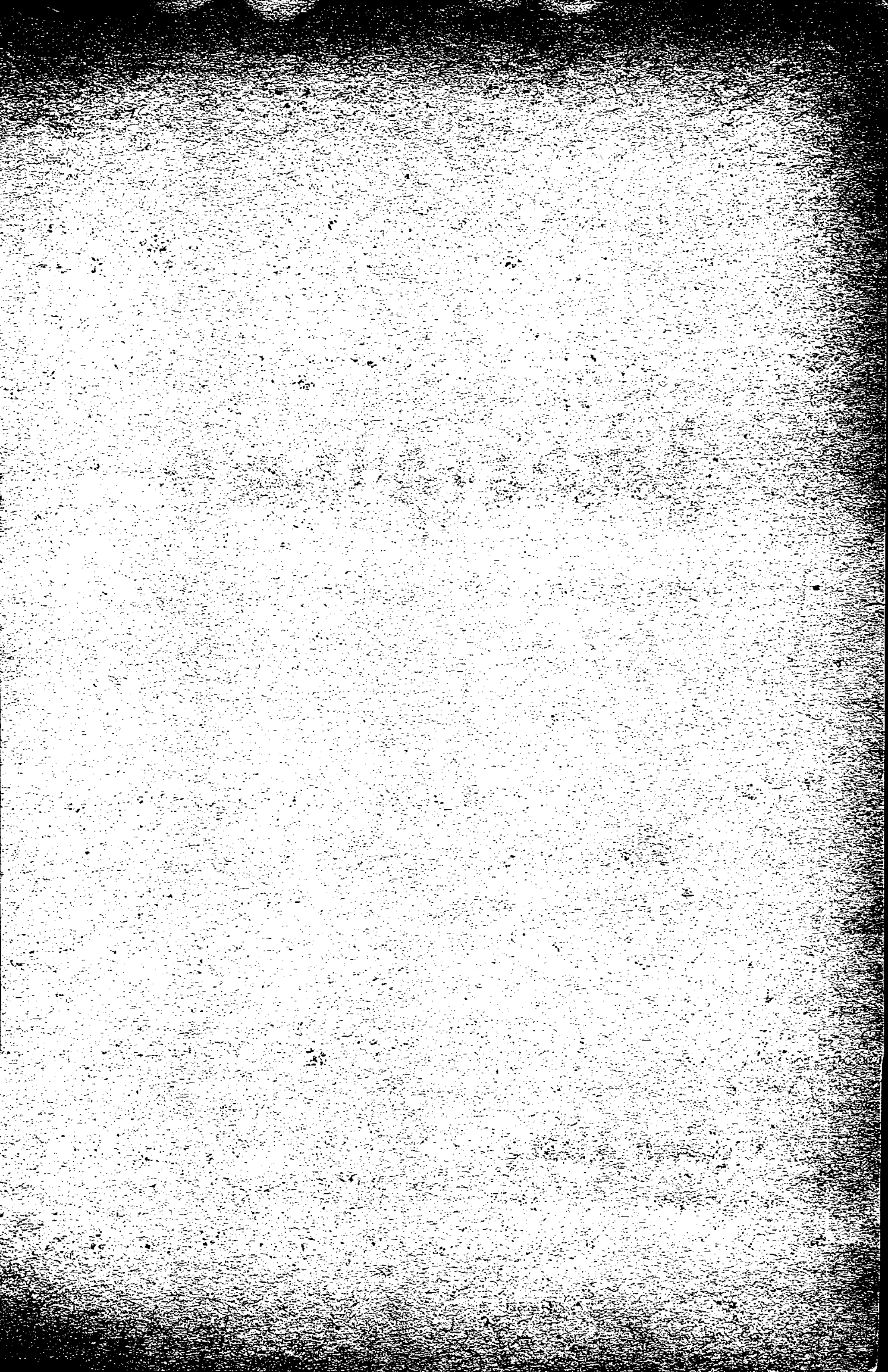
مؤسسة البيان للصحافة
والطباعة والنشر
دبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٢٧١٠





وحيداً في دمشق

القصة الكاملة للجاسوس الاسرائيلي ايلي كوهين



شموئيل شيغف

وحيداً في دمشق

القصة الكاملة للجاسوس الاسرائيلي إيلي كوهين

ترجمة وإعداد

مركز الخليج للدراسات الإستراتيجية

لندن

مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر

دبي ــ الامارات العربية المتحدة ــ ص ب ٢٧١٠

الطبعة الثانية ١٩٩٨م

مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر
دبي ــ الامارات العربية المتحدة ــ ص ب ٢٧١٠

الفهرس

كلمة لا بد منها

اليوم وقد نسى العرب قصة الجاسوس الإسرائيلي «إيلي كوهين» أو «كامل أمين ثابت» كما سمَّى نفسه وسمَّاه العرب، من حقِّ الأجيال العربية التي لم تعاصر هذه القصة المؤلمة أن تتعرّف عليها، وأن تدرك جوانب أسرارها، لتكون عبرةً ودرساً يكشف ويفضح المخططات الصهيونية التي ما زالت مستمرةً حتى اليوم.

ورغم أن هناك الكثير مما كتب عن «إيلي كوهين» فإنّ هذا الكتاب يعطي صورة أوضح وأشمل، لأن المؤلف صهيوني معاصر لأحداث القصة وشاهد عيان لحياة «إيلي كوهين» وقد صدر الكتاب في إبريل ١٩٨٦م.

نشر هذا الكتاب في حلقات متسلسلة في صحيفة «البيان» الإماراتية في الفترة من ١٢ يوليو الى ١ نوفمبر ١٩٨٦م.

والهدف الرئيسي من إصدار هذا الكتاب ليس إلا خدمة وطنية وقومية نقدمها للقارىء العربي، لأهمية المعلومات الواردة فيه، وكذلك لإطلاعه على الأسلوب الذي تلجأ إليه المخابرات الإسرائيلية «الموساد» في تجنيد عملائها وجواسيسها، وكيفية

محاولاتهم الوصول الى سلطة اتخاذ القرار في الوطن العربي للحصول على أدقِّ المعلومات وأخطرها من المصادر الرئيسيَّة الأساسيَّة.

وإذا كان المؤلف يعمد أحياناً الى المديح والتمجيد لشخصيَّة «إيلي كوهين» الذي استطاع أن يخترق دماغ المخابرات العربية، فإننا سوف نورد ذلك كله، ومن حقِّنا التعليق، والتفنيد والرد على أي معلومة نرى فيها افتراء على الحقيقة، أو تزييفاً للتاريخ العربي والكفاح العربي.

الناشر

هذا الكتاب

ان لعالم الجاسوسية، تكتيكه ومتطلباته وأساليبه الخاصة، ولذلك، فإن له شخوصاً خاصة أيضاً، فهو صراع الظل، بل صراع الظلام، ورغم ان الجاسوسية هي أحد نماذج أو أنماط الحروب، الا أنها خارج نطاق الصِّدام المباشر، وعليه، فإن الذين يتقنون ممارسة الصراع دون صدام لهم مميزات خاصة جداً، وهذا ما يفرِّق حرب الجاسوسية عن معارك الجيوش المباشرة أو الانتفاضات الشعبية.

وحرب الجاسوسية تستلزم عدم دخول مرحلة الصدام المباشر لأن دورها هو نقل المعلومات فقط، ولهذا، فإن فقدان الجاسوس الواحد يشكل خسارة فادحة، لأن تعويضه صعب نظراً لقلة القادرين على إتقان هذا الفن الحربي. وهو على أيّة حال أحد الفنون الرديئة، وعلى الأقل نظراً لِسِمَتِهِ المخابراتية.

والصهيونية خبيرة في عالم التجسُّس، وهذا لا يعود فقط الى الظروف التي جرى فيها زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي على شكل دول استيطان كولونيالي واقتلاعي أيضاً، وانما نظراً **لتناسب** الجاسوسية مع التراث الاجتماعي العبري أو اليهودي، فعالم الجيتو المغلق على نفسه والذي يرفض أي جسم من الخارج، ويرفض هو

نفسه الاختلاط بمن هم خارجه، عالم كهذا ينسجم بالضرورة مع تعاطي الجاسوسية، فالانعزال عن الآخرين يخلق حالة سيكولوجية تفرض على صاحبها بلوغ ما يريد من الأبواب الخلفية للحياة، وبالتالي، فإن دولة مكوَّنة من اتحاد أو كونفدرالية «جيتوهات» - مفردها جيتو - سوف تحرز قصب السبق في تحصيل ما تريد عن طريق الجاسوسية.

من هنا تبرز خطورة وجود إسرائيل في الوطن العربي، وخطورة كون إسرائيل مستودعاً ليهود قَدِمُوا من مختلف أقطار الوطن العربي، لا يعرفون اللغة واللهجات العربية فحسب، بل ويعرفون الطبوغرافيا وحتى أجزائها الصغيرة، أي الطرق والمسارب والمسالك والمغاور، وليس غريباً أن يلقي الجنود الأردنيون القبض داخل الحدود من «إسرائيل» قبل وبعد ١٩٦٧، على أعداد كثيرة من اليهود الذين كانوا يدَّعون أنهم دخلوا الحدود الأردنية خطأً، مع أن هذا مستبعد جداً، أما لماذا وكيف انتقل اليهود من الوطن العربي الى فلسطين المحتلة، فهذا سؤال مطروح على الزعماء العرب، برسم الوطنية والقومية والدين الإسلامي منذ يحيى حميد الدين في يمن الأربعينات، وحتى اليوم، بما فيه من ملابسات، والى الغد. . .. ان كان أيضاً.

ان لحرب الجاسوسية بيننا وبين إسرائيل معنى ونتائج فريدة، ربما لا يوجد لها مثيل في العالم المعاصر على الأقل، فإذا كان ما كانت تخسره أميركا بسبب التجسس السوفياتي السابق عليها هو سرّ تكنولوجي هنا أو هناك، والشيء نفسه بالنسبة للسوفيات، فإن ما خسرناه من جرَّاء نجاح، أو قُل اختراق الجاسوسية الاسرائيلية لعنقنا

ليس سراً تكنولوجياً، بل ما خسرناه هو وطن أو جزء من وطن، كما وترتَّب على هذه الخسارة تغير مسار حركة التحرر الوطني العربية، لننتقل من الأمل في الوحدة الى الإيمان بالتجزئة، ومن العزة القومية الى التعصب والانغلاق الاقليميَّيْن.

«حقائق لا تُنسى»

كما أشرنا أعلاه، فإننا سهَّلنا أعمال التجسس الاسرائيلي في أوساطنا وذلك بتسهيل هجرة يهود الأقطار العربية الى ما يسمّى «إسرائيل»، ولكننا قدَّمنا تسهيلات لاحقة أيضاً، فالأسلحة العربية معظمها أميركية، والضباط والخبراء العرب يتدربون في أميركا، وكل هذه المعلومات تتسرب من أميركا الى إسرائيل، سيان عبر الإدارة الأميركية نفسها أو عبر المخابرات الأميركية الى الموساد، أو عبر عملاء من هذه المخابرات الى الموساد، أو حتى عبر جواسيس مثل الجاسوس الاسرائيلي الأخير «جوناثان بولارد»، وهو يهودي أميركي، والذي ورد في اعترافاته مؤخراً انه نقل الى اسرائيل أسراراً عسكرية عن مصر والأردن والعربية السعودية.

لقد اتضح من المعلومات المتوافرة عن أسباب نجاح جواسيس إسرائيل في البلدان العربية، ان المناخ الذي ازدهرت فيه الجاسوسية الاسرائيلية في أوساطنا هو مناخ الحفلات المختلطة والماجنة التي يدوخ فيها القادة أو حاملي أسرار القادة، وهي أسرار الوطن بالطبع، فيغدقونها رخيصة على الجاسوس الذي يتظاهر بشرب الكحول، أو ربما يصحو أكثر كلما شرب أكثر، إضافة الى أن إعجابنا، ومن موقع دوني، بمظاهر الحياة الغربية وبمن يمثلونها،

قد فتح مدخلاً مناسباً بل وممتازاً لعملاء إسرائيل كي يصلوا الى أعزّ ما لدينا من أسرار، وحالة اليهودي الألماني «وولفغانغ لوتس» في مصر مثال ساطع على ذلك.

وعلى أية حال، فإن جواسيس إسرائيل لم يكونوا وحدهم في الدول العربية، أو على الأقل لم يظلوا وحدهم، فقد جندوا عملاء محليين، وعلى أي حال، وبغض النظر عن إنزال عقوبة الاعدام بحق بعض هؤلاء العملاء ـ ولسوء حظ البعض ـ فإن مصير العملاء حتى في أوساط البلد الذي خدموه، ليس بالمصير الطيب، فبعد اعتصار العميل يُلقى في مؤخرة التاريخ، وربما كان ما حصل للجاسوس السويسري «ألفريد فرادينكنيخت» عندما ذهب إلى إسرائيل هو خير مثال، حيث كان يتوقع أن يستقبله الإسرائيليون استقبال الأبطال، ولكن لم يستقبله ولم يشعر به أحد من الاسرائيليين، بل ان الحكومة الاسرائيلية لم تدفع تكاليف استضافته في إسرائيل.

وهذا يذكرنا «بشيخ جواسيس نابليون» وهو نمساوي كان له دوره البارز في انتصار نابليون في معركة «اوسترليتز» حيث ذهب الجاسوس لمقابلة الامبراطور الفرنسي طالباً منه الحصول على وسام الثورة الفرنسية لقاء خدماته، فأجابه نابليون: «بوسعك أن تأخذ مائة فرنك وربما أكثر، أما وسام الثورة الفرنسية، فهو وسام النضال الوطني وأنت خائن لوطنك».

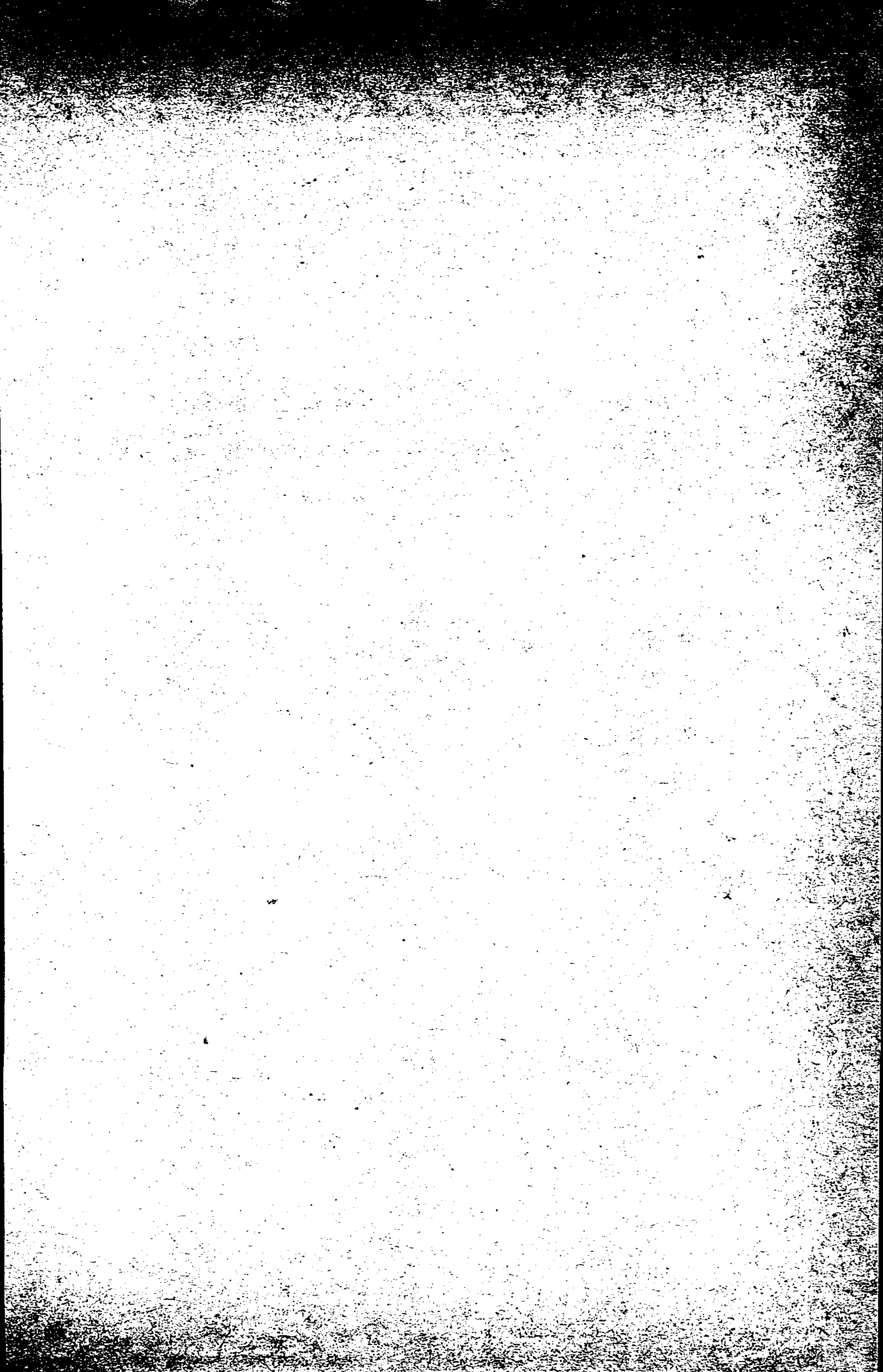
ان أحدث ما نُشر عن أنشطة الجاسوسية الاسرائيلية في الوطن العربي، كتاب «وحيداً في دمشق» من تأليف الكاتب اليهودي «شموئيل شيغف» وقد صدر في هرتسليا في الأسبوع الأخير من ابريل العام ١٩٨٦.

والكتاب بكامله يسرد قصة الجاسوس الاسرائيلي المعروف «إيلي كوهين» الذي اخترق دماغ المخابرات السورية، والتهم أسرار الدولة وحولها كاملة وواضحة الى إسرائيل... تحت اسم مستعار هو «**كامل أمين ثابت**».

ونودُّ بهذه المناسبة، لفت نظر القارىء الى أننا حاولنا عدم التدخل في الصيغ اللغوية للكتاب، وخاصة التي يمدح الكاتب فيها «كوهين» ويصوره كبطل، ومقاتل... الخ، وآثرنا إبقاءها على حالها ليكون ذلك درساً لنا يدفعنا لتمجيد أبطالنا الذين نسيناهم ببساطة.

أما تدخلنا نحن، فسيكون بوضع الهوامش في المواقع التي وجدنا أنه لا بد من التعليق عليها.

مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية ـ لندن



مقدمة المؤلف

«إيلي كوهين»، هو بلا منازع، ملك الجاسوسية الاسرائيلية، فرغم مرور أكثر من عشرين عاماً[١] على إعدامه شنقاً في ساحة «المرجة» بدمشق، الا أن قضيته ما تزال تثير الدهشة في الدول العربية خاصة، وعلى الصعيد العالمي عامة، باعتباره عميلاً سرياً استفاد مدربوه من خبرة دوائر مخابراتية عديدة في العالم، حيث جعلوا منه بواسطة هذه الخبرات عميلاً سرياً من الدرجة الأولى.

ولكن هذا لا يخفي أبداً قدرته المذهلة على التسرب الى مراكز القوى، «بل والسلطة في سوريا لدرجة أصبح هو نفسه معها جزءاً من المؤسسة الحاكمة في دمشق في ذلك الوقت»[٢].

هذا الاختراق المخابراتي أثار الرعب في أعلى مراكز السلطة

---

(١) نظراً لصدور الطبعة الأجنبية العام ١٩٨٦.

(٢) هذا عادة اليهود وخاصة «الصحافة» فهي دائماً تحاول أن تصوّر أن اليهود قادرون على تحقيق المعجزات وهذا خلاف الواقع الذي سارت عليه الأمور بشكل عام وعليه سيلاحظ القارىء الكريم الكثير من هذه العبارات في أكثر من موضع في الكتاب وهذا ما لا يخفى على القارىء والذي أصبح يملك الثقافة الكافية لفهم عقلية هذا العدو وأساليبه الإعلامية.

في سوريا، في ذلك الوقت، مما أدى الى زعزعة ثقة الحكام بأنفسهم وزرع لديهم شكوكاً في جميع العاملين حولهم لدرجة أنه حتى اليوم، ما زال سياسيون ومحللون سياسيون عرب يحذّرون من تواجد جواسيس بينهم من نمط كوهين.

في الواحد والعشرين[١] عاماً التي انقضت على القبض عليه وإعدامه، خاضت سوريا حروباً ثلاثاً مع إسرائيل، وخلال هذه الفترة فارق الحياة العديد من القادة والضباط الذين سحرهم رجل المخابرات الاسرائيلي، وعُزل آخرون من مناصبهم، وأما قلة من هؤلاء فهي التي ما تزال على قيد الحياة، والشيء نفسه عن رؤساء كوهين في المخابرات الاسرائيلية، حيث لم يعد لهؤلاء نشاط مخابراتي يُذكر في أجهزة المخابرات الاسرائيلية، وبالرغم من وجوب إبقاء هؤلاء في الظل، فإنه لا مانع من التحدث عنهم وعن أساليب عمل أجهزة المخابرات الاسرائيلية، التي تصر على التمسك الصارم بصيانة حياة عملائها، حيث وَضَعت لنفسها ولهم قواعد واضحة في المسلك والممارسة.

في هذا الإطار المعقَّد والمؤلَّف من شخصيات وأحداث، تبرز شخصية إيلي كوهين كعلامة هامة وبارزة. لقد عمل رجال المخابرات الاسرائيليون قبل كوهين بزمن طويل، وما زال آخرون يعملون بعده في الدول العربية، والكثيرون من هؤلاء أنهوا مهامهم وخدماتهم بنجاح وعادوا بسلام الى أسرهم، وآخرون وهم قلة، ألقي القبض عليهم وأعدموا، والبعض ظل مصيره مجهولاً حتى اليوم، أما إيلي كوهين، فقد شاءت الأقدار أن يكون ممثلاً لهؤلاء

(١) حسب الطبعة الأجنبية الصادرة عام ١٩٨٦.

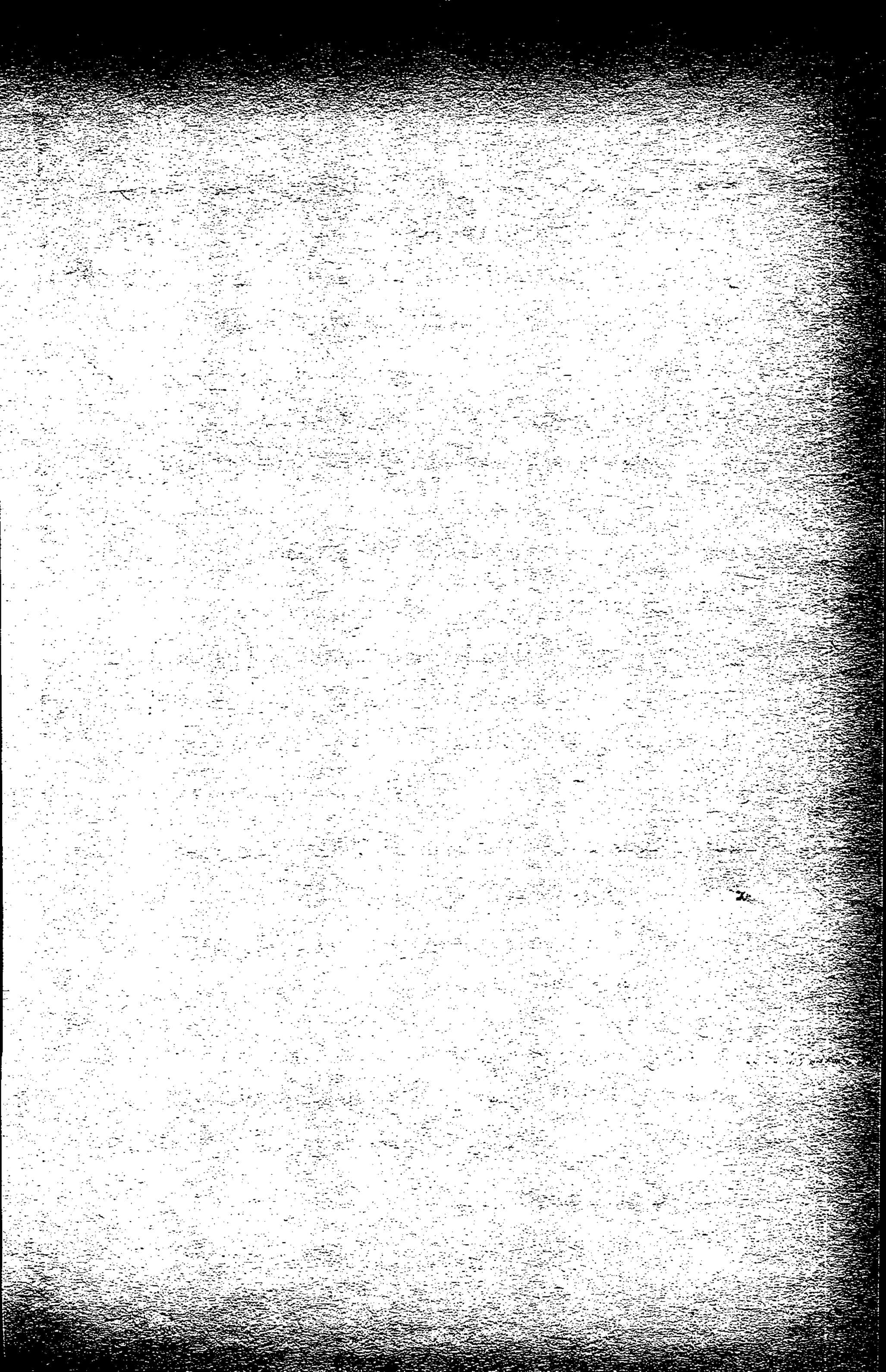
«الجنود» المجهولين، فقد عاش في دمشق ثلاث سنوات نجح خلالها في توثيق علاقاته مع حكام سوريا، وفي إرسال معلومات دقيقة، وبشكل متواصل وأمين عن الحياة في دمشق، وعن شخصيات الحكام وعلاقاتهم السياسية والعسكرية مع الاتحاد السوفياتي، وعن مختلف الاستعدادات السياسية والعسكرية في العالم العربي، ان اعتقاله ومجرد كونه الاسرائيلي الأول والوحيد حتى الآن الذي أعدم كإسرائيلي، قد أعطاه موقعاً واهتماماً متميزَيْن بين جواسيس إسرائيل، حيث أُطلق اسمه على الشوارع والحدائق العامة والمدارس والكنائس ومؤسسات أخرى.

وبعد إعدامه، صدرت عنه في إسرائيل والعالم كتب عدة، لبّت الرغبة في التعرف على الرجل وما قام به، ولكن السنوات التي انقضت كشفت بعض الجوانب والأمور المتعلقة بحياته وموته، وهذا الكتاب «وحيداً في دمشق» يكشف بعضاً منها ويلقي أضواء جديدة على ظروف تجنيده وتشغيله واعتقاله.

وخلال تأليفي هذا الكتاب، التقيت شخصيات عديدة ارتبطت بمراحل مختلفة من حياة إيلي كوهين، ولأسباب معروفة بقيت هوية بعضها مطوية، فلكل واحد منهم بمفرده ولهم جميعاً أقدم شكري العميق، لقد فتحوا ناظري وأوضحوا لي خطورة عمل «مقاتل» إسرائيلي في الدول العربية.

أقدم شكري الجزيل أيضاً الى «صوفي» والدة إيلي كوهين «النبيلة» وإلى «ناديا» زوجته وإلى أخيه وأخواته.

مؤلف الكتاب ـ شموئيل شيغف



فَخٌّ في دمشق

في نوفمبر ١٩٦٤، أي قبل شهرين من اعتقاله على أيدي قوات الأمن السورية أحس إيلي كوهين ان النهاية المأساوية لمهمته التجسسية قد دنت، وعليه فقد مدد إجازته الأخيرة في «إسرائيل» من بداية أكتوبر وحتى منتصف نوفمبر، وبهذا كانت مختلفة عن كل سابقاتها من حيث مدتها وطبيعتها.

وصل إيلي كوهين الى «إسرائيل» بمناسبة ولادة طفله الثالث «شاؤول ـ شاي» ولكن هذه المرة، وعلى العكس من مناسبتي ولادة ابنتيه «صوفي» و«عيريت»، فقد كان كئيباً ومتوتر الأعصاب، وظل هذا الشعور ملازماً له حتى إبان حفل ختان ابنه، ومع اقتراب عودته الى دمشق، تضاعف في نفسه القلق، فالسنوات الثلاث التي قضاها في سوريا باسم «كامل أمين ثابت» كان لا بد أن يظهر تأثيرها عليه، فهذا الرجل الذي اعتبر فيما بعد أحد كبار جواسيس القرن العشرين، أو «الجاسوس الإسرائيلي الأكبر» كان قد وصل حافة الانهيار حسب قول زوجته «ناديا» في وصفها لمشاعره الخاصة أثناء آخر إجازاته.

و«ناديا» هذه لم تلتئم جراحها على فقده رغم مرور أكثر من عشرين سنة على موته، كانت تصغره بإحدى عشرة سنة حيث

تزوجها في ٣٠ من أغسطس عام ١٩٥٩ ، وعاشت معه ناديا الى أن غادر البلاد للمرة الأولى في فبراير عام ١٩٦١ ، وعليه كانت فترة حياتهما المشتركة ١٧ شهراً فقط ، ومع ذلك ما تزال متأثرة بشخصيته حتى اليوم.

كتب إليها في رسالته الأخيرة، قبل دقائق معدودة من وضع حبل المشنقة حول عنقه: «أرجو أن تتزوجي ثانية ليحظى الأطفال بأب» ولكن «ناديا» لم تتزوج.

تقول «ناديا»: عندما وصل إيلي إلى «إسرائيل» عام ١٩٦٤ ، لم يكن هو إيلي الذي عرفته، لقد كان لقاؤنا في المطار مثيراً أكثر من أي لقاء مضى، كانت المرة الأولى التي أشاهد إيلي يذرف فيها الدموع، عانقته وقبلته وهمست في أذنه: أريدك أن تكون هنا، في البيت، إلى جانبي ومع الأولاد، ولكن ما أن مضت بضعة أيام حتى أدركت كم تغير إيلي، كان متوتراً قلقاً، عيناه حمراوان وكانت تُثِيره حتى صغائر الأمور، وعندما طَلَبتْ منه أخته «أوديت» أن يمنحها سلفة صغيرة، انفجر في وجهها صارخاً ولم يستجب لطلبها.

كانت العلاقات متوترة بيننا أكثر من أي وقت مضى، وصل إيلي الى البلاد عندما كنت في الشهر الثاني من الحمل، كان حملاً قاسياً، عانيت منه الكثير، وقبل مجيئه كنت قررت أن أواجهه بأنني لم أعد أملك قدرة على التحمل ولن أسمح له بأن يغادر البلاد، ولكن عندما جاء وجدتني وقد قررت نسيان الماضي، وأن أعيش الحاضر وأحلم فقط بالمستقبل، لذلك آثرت السكوت بينما كان إيلي يلحّ عليَّ بأن يشاركني في كل ما يحدث لي منذ غادر البلاد في رحلته الأخيرة للخارج.

في هذا الوقت تأخرت الولادة، الأمر الذي ضاعف التوتر بيننا، لدرجة اتهمني معها إيلي بأنني أفعل ذلك عن قصد، وأنني كنت أتمنى أن لا ألد بسرعة لكي لا يعود الى دمشق، ورغم أنه لم يقل ذلك مباشرة، إلا أنني أحسست أنه لا يرغب في العودة الى سوريا.

كانت النقاشات بيننا حادة وعاصفة، وقد أمضيت بضعة أيام مُمْسِكة عن الطعام، وقلت له أنني لم أعد أحتمل العزلة، ولا أستطيع الصمود أكثر، لقد رجوته أن لا يغادر، ولكنه قال بأنه بقي عليه رحلة واحدة لمدة ستة شهور، وعندما شعر بأنني انقبضت نفسياً وعدني أن يجزّىء الفترة الى مرحلتين، وأبدى استعداده لأن يعود الى البلاد لقضاء إجازة قبل نهاية فترة خدمته.

مع زيادة التوتر على الحدود السورية الإسرائيلية ازدادت الضغوط على «كوهين» لينهي إجازته ويعود الى دمشق، وعليه ازدادت المشاجرات بينه وبين زوجته. أحد المسؤولين عنه والذي كانت ناديا تسميه «الملاك» كان يزور البيت بين فترة وأخرى كي يتشاور مع «كوهين» حول المرحلة القادمة من العمل.

و«الملاك» هذا، كان قد أعد لسنوات طويلة العديد من الجواسيس الاسرائيليين للعمل في الدول العربية، وهو من مواليد العراق، وكان على معرفة موسوعية بتاريخ العرب والاسلام[١].

---

(١) قبل عام ١٩٤٨، كان عدد اليهود في الوطن العربي يقارب ٨٠٠ ألف شخص، أي ٦٪ من مجموع يهود العالم. وبعد هذا التاريخ، غادر اليهود الوطن العربي بشكل شبه كلي، ومعظمهم هاجر الى «إسرائيل». وكانت أكبر موجتين من المهاجرين اليهود الى إسرائيل، من العراقيين واليمنيين. وقد =

في فترة الانتداب البريطاني كان والد «الملاك» من مؤسسي «الغرفة العربية» وهي احدى فروع منظمة «البلماخ». أما «الملاك» فهو نفسه الذي أعد كوهين وكان يزوره في بيته بشكل متواصل وهو الذي عجّل بعودته الأخيرة الى دمشق.

= قدرت الاحصاءات الرسمية العراقية عدد اليهود الذين غادروا وطنهم العراق الى إسرائيل بـ١١٨ ألف شخص عام ١٩٤٧، إلا أن العدد الحقيقي أكبر بكثير. وعلى أية حال، فإنه بعد أن كان عدد اليهود الشرقيين في «إسرائيل» ٤٤٩٠٨ أشخاص (١٠,٤٪ من العدد الكلي للمستوطنين اليهود قبل ١٩٤٠)، أصبحت نسبة اليهود الشرقيين اليوم في إسرائيل ٦٠٪، وتحتم المسؤولية القومية البحث المتعمق في الظروف التي سمحت فيها بعض الزعامات العربية، في ذلك الوقت، لليهود بالهجرة، بل دفعتهم الى ذلك دفعاً مما رفد الكيان الدخيل بالطاقات البشرية اللازمة لبناء هياكله ومقومات وجوده.

إيلي يتوقع نهايته

في هذه الفترة أحست ناديا بآلام المخاض، ولكنها أنجبت بعد أسبوعين أي في ٢٢/ ١٠/ ١٩٦٤، وفي هذا الصدد تقول ناديا: لقد أصابني الذهول بعد الوضع. فكم كنا نحلم بطفل، ونترقب بشغف طفولي لحظات ولادته، وعندما ولد الطفل لم نشعر بأي فرح، كان إيلي عصبياً ومتوتراً، وعندما حملوا إليه البشرى لم ترتسم على شفتيه أية ابتسامة، لم يكن إيلي ليفصح عن إحساسه المؤكد بأن مصير «شاي» أن يعيش يتيماً، ونظراً لاضطراب إيلي النفسي فقد اقتصر الاحتفال بظهور الطفل على أبناء العائلة فقط.

بعد أيام من ولادته أصيب «شاي» بإلتهابات، وهكذا أجّل إيلي موعد سفره، لقد أحب طفله كثيراً، فقد كان يحمله على ذراعيه ويقبله مئات القبل ويحادثه طوال النهار، وكان بهذا كمن يحاول إزاحة عبء عن كاهله، أو كمن يريد التحدث مع ابنه بأكثر ما يمكن باعتباره حديث الوداع.

في ١٧ نوفمبر ١٩٦٤ وبعد أن شفي شاؤول «شاي» سافر إيلي كوهين للمرة الخامسة الى دمشق، في مهمة لم يعد منها بعد، وقبل أن يسافر، وفي يوم، كان خريفياً بارداً وممطراً، كانت ناديا نائمة

عندما جاءت «صوفي» والدة إيلي باكراً لتتناول معه قهوة الصباح، ولكنه لم يتفرغ لها، وكل ما فعله انه قال لأخيه افرايم بعض كلمات الوداع.

وافرايم عضو «كيبوتسي» سابق، خدم في الجيش كمظلي أثناء حرب سيناء، وهو أصغر من إيلي بخمس عشرة سنة، ولكن رغم التفاوت في السن فقد كانت علاقتهما حميمة. كان افرايم يشاطر إيلي همومه عندما جنّد في وحدة للمخابرات في ٢٤ مايو ١٩٦٠، كما أنه عرف بسفره الى الأرجنتين للتغطية على رحلته الحقيقية، وكان أول فرد في العائلة يعرف بأن أخاه جاسوس إسرائيلي في سوريا.

ولكن في خريف ١٩٦٤ عرف كل أفراد العائلة ان إيلي موجود في سوريا حيث حدَّث إيلي زوجة أخيه «رينه» وكانت زوجته وباقي أخوته قد عرفوا ذلك قبلاً.

لقد حاول افرايم إقناع أخيه بألا يعود الى دمشق لكن إيلي رفض أي طلب من هذا القبيل، وعندما وقف يعانق أخاه عند مدخل داره في «بات يام» طفرت الدموع في عيني إيلي وقال لأفرايم «دير بالك على زوجتي وأطفالي الثلاثة».

كانت هذه المرة الأولى التي يقول فيها إيلي مثل هذه الكلمات، ففي المرات السابقة كان يبدو مرحاً وهادئاً وواثقاً من نفسه ويطفح أملاً بالمستقبل، أما هذه المرة فأحس أنه ذاهب الى سوريا مكرهاً.

بعد أقل من شهرين، وفي ١٨ يناير ١٩٦٥ أُلقِيَ القبض عليه

واتهم بالتجسس لصالح إسرائيل، وقدم لمحاكمة «صورية»[(١)] «كما كان متبعاً في بعض الدول العربية»، كان الذين حققوا معه هم القضاة الذين أصدروا عليه الحكم ولم يمنح حق الدفاع عن نفسه، حتى أن إيلي لم يعرف بأن محاميين فرنسيين معروفين، كلفتهما إسرائيل بالدفاع عنه في إطار الجهود التي بذلتها لإنقاذه، ولكن أخيراً حكم عليه بالموت وشنق بتاريخ ١٨ مايو ١٩٦٥ وحيداً في موته كما كان وحيداً في تأدية مهمته.

كان اعتقال كوهين ضربة قاصمة لأجهزة المخابرات الاسرائيلية، فقد اعترف السوريون أنفسهم انه منذ حرب ١٩٤٨ لم يعمل بينهم جاسوس بهذا المستوى الرفيع مثل «إيلي كوهين».

أما الضربة الثانية المشابهة التي أصابت إسرائيل، فهي إلقاء القبض على جاسوس إسرائيلي في القاهرة، بعد شهر من انكشاف إيلي كوهين، وذلك الجاسوس هو «وولفغانغ لوتس» وزوجته[(٢)]،

---

(١) ان ما يسميه المؤلف «محاكمة صورية»، يثير لدينا نزعة المقارنة، فإذا كانت محاكمة كوهين صورية، فما الذي يقال في المحاكمات العسكرية التي تجريها إسرائيل في المناطق المحتلة ضد الفدائيين الفلسطينيين واللبنانيين، حيث تكون دوائر المخابرات وتحديداً المحققين، هم الذين يحددون حكم المتهم، ولا يكون أمام القاضي سوى التوقيع عليه.
والكاتب يعتبر «كوهين» مقاتلاً، ويطلب أن يعامل كأسير حرب، ولكن إسرائيل، الآن، ترفض اعتبار الفدائيين الفلسطينيين واللبنانيين أسرى حرب، وتطلق عليهم كلمة «مخربين» أو «إرهابيين».
ان عدم ربط الكاتب بين الحالتين المتشابهتين، يكشف نمط التفكير الصهيوني المتعالي، والذي يحس بفوقية مطلقة، قائمة على مقولات توراتية (تاريخية) كاذبة.

(٢) قرر لوتس أن يعمل في مجال تربية الخيول، ولذلك ذهب فور وصوله الى القاهرة، الى نادي الجزيرة للفروسية، حيث كان الضباط يرون في هذا النادي =

وذلك بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٦٥.

= بيتهم الثاني. وأول شخص قابله لوتس هناك هو «يوسف علي غراب» رئيس دائرة الشرطة في مصر، حيث نمت بين الاثنين صداقة قوية وسريعة. وباشتراك لوتس في حفلات الكوكتيل والسباحة، اخترق الطبقة العليا بجناحيها البيروقراطي والعسكري. وفي مقابل الانفاق الترفي، الذي كان يضخه لوتس على هؤلاء «الكبار»، فقد زوده صديقه في الفروسية الجنرال «عبد السلام» بصورة كاملة للطريقة التي يعيد فيها السوفيات تنظيم الجيش المصري، واستشارة الجنرال «فؤاد عثمان» بالمناورات التدريبية التي تجريها قواته، بل واستطاع لوتس إخفاء إتقانه للغة العربية بذكاء، فأمكنه من سماع أحاديث في غاية الأهمية بين الجنرالات المصريين.

أنبوبان غير محكمين

لقد ظهر الاتحاد السوفياتي بعد هذين الحادثين قلقاً من حليفتيه العربيتين الاساسيتين «مصر وسوريا» هما أنبوبان غير محكمين، وقد أصرّ جهاز المخابرات السوفياتي «ك. جي. بي» على إعادة النظر في فحص مباني جهازي المخابرات في مصر وسوريا، وعليه قدمت المخابرات السوفياتية معدات التقاط متطورة، وأرسلت خبراء خصيصاً لتشغيلها، وخلال خمسة أسابيع نجح هؤلاء بالكشف عن أخطر جاسوسين إسرائيليين في العالم العربي. فقد كان هذا إنجازاً يثير الاعجاب بلا ريب.

تَطلَّب اعتقال كوهين اتخاذ كافة الاحتياطات من قبل إسرائيل للحيلولة دون كشف «مقاتلين»، آخرين عملوا في حينه في دول عربية مختلفة، أحدهم كان «باروخ مزراحي» «مدير معهد اللغات الأوروبية» في حلب عندما كان إيلي كوهين يعمل في دمشق «كَوَكِيل تجاري»، وبعد اعتقال كوهين طلب الى «مزراحي» مغادرة دمشق، وبعد وقت قصير نقل الى اليمن، وعشية حرب يونيو ١٩٦٧، ألقي القبض عليه هناك واتهم بالتجسس لصالح إسرائيل، وجرى تسليمه لمصر بسبب دوره في متابعة تحركات القوات المصرية في اليمن،

الى أن أطلق سراحه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ضمن عملية تبادل لـ ٥٢ ضابطاً مصرياً[١].

(١) ان انتقال مزراحي، هكذا ببساطة من الشام الى اليمن لمتابعة تحركات القوات المصرية هناك، يدل دلالة واضحة على أن الدول العربية كانت، مزرعة للجواسيس الاسرائيليين يتنقلون فيها بسهولة تفوق تنقل أبنائها.

طموحٌ أدى الى المشنقة

كان إيلي طموحاً وأراد أن ينهي مهمته بنجاح، وفي أحاديثه مع المسؤولين عنه، وخصوصاً «سليمان» سُئِل إيلي ان كان يرغب في قَطْعِ مهمته، لكنه رفض وقرر انه يود الاستمرار حتى إكمالها.

وفي أحاديثه مع عائلته وخاصة مع أخيه «افرايم» اعرب عن خوفه من انّ قَطْعَ مهمته في هذه المرحلة قد يضع حداً لآماله بالانتقال الى العمل مستقبلاً في وزارة الخارجية الاسرائيلية، وكان قد وعد «ناديا» أيضاً بأن يصبح ذات يوم سفيراً وأنها حينذاك سوف تعيش «كملكة»، لكن إيلي كان معروفاً كجاسوس مخلص، ومندفع ويعتبر الجاسوسية بمثابة «مسؤولية قومية»، هذه المشاعر على ما يبدو هي التي حسمت موقفه، ولكن الأهم من هذا وذاك فإن إيلي كان ضحية لنجاحه، وان قدرته على اختراق المراتب العليا في القيادة السورية بشكل متقن لدرجة اعتقد معها هؤلاء انه ينتمي الى المؤسسة السورية الحاكمة، هذه القدرة وثقة القادة به خفّفت من حدة يقظته، ويقظة قادته المسؤولين عنه بأنه محمي من الفشل.

ان اعتقاد كوهين بأنه محميّ من الفشل، يتطابق مع تقارير علماء النفس الذين اختبروه قبل تجنيده كمقاتل في الوحدة ١٣١ في

جهاز المخابرات، فقد أقروا بوضوح ان إيلي كوهين كان يتمتع بنسبة ذكاء عالية، ولكنه لا يملك القدرة على إدراك المخاطر المحدقة به مما يدفعه للاستخفاف بقدرة الخصم، ولعل هذا كان السبب وراء تأجيل تجنيده في جهاز المخابرات لمرتين متتاليتين، وعندما قبل في المرة الثالثة كان ذلك بسبب زيادة التوتر على الحدود الاسرائيلية السورية.

سويداني يكشف سر كوهين

ظهرتَ أولى بوادر الاشتباه بكوهين لدى قيادة حزب البعث السوري في صيف عام ١٩٦٤، وكان الكولونيل أحمد سويداني رئيس قسم الاستعلامات في قيادة الجيش السوري هو أول من ثارت الشكوك لديه تجاه كوهين.

كان موقع سويداني قد تقدم منذ استلام حزب البعث للسلطة في كل من سوريا والعراق عام ١٩٦٣.

ولد سويداني في مدينة دير الزور، وبعد إنهاء دراسته العادية دخل مدرسة الضباط في حمص، وبعد التخرج منها أرسل الى دمشق للتخصص كضابط في سلاح المدفعية، وهناك تعرف الى «صلاح جديد» الذي أصبح فيما بعد رئيساً لأركان الجيش السوري وسكرتير القيادة القطرية لحزب البعث في سوريا.

وأبان سنوات الوحدة المصرية السورية عمل «سويداني» ملحقاً عسكرياً في أفغانستان والصين الشعبية، وقد أنهى هناك دورات في «التثقيف النظري»، في موسكو وبكين وأعجب هناك بنظريات «ماوتسي تونغ والجنرال جياب» الثورية، وبعد استلام البعثيين للسلطة في ٨ مارس ١٩٦٣ استدعي الى دمشق، وفي يوليو

١٩٦٣ عين رئيساً لقسم الاستعلامات في قيادة الجيش، وقد عرف سريعاً كمناهض للناصرية حيث أنيطت به مسؤولية الإشراف على التجسس المضاد لسوريا.

وفي الصراع الداخلي على السلطة بين أجنحة البعث السياسية والعسكرية، كان «أحمد سويداني» صديقاً شخصياً لصلاح جديد، وكبعثي فقد تعقب بدقة خطوات المقربين من الرئيس محاولاً الكشف من بينهم عن مؤيدي عبد الناصر. وأثناء حفلة استقبال عقدت في مقر الرئاسة في ٨ مارس ١٩٦٤، والتي كان إيلي كوهين أحد حضورها، أحس الجاسوس الاسرائيلي والذي كان يعرف باسم «كامل أمين ثابت». بنظرات سويداني الثاقبة وخاصة عندما صافح كوهين الرئيس أمين الحافظ بحرارة وتبادل معه بضع كلمات.

عندما عاد كوهين الى إسرائيل في أكتوبر ١٩٦٤ حدّث المسؤولين عنه قائلاً: انه لا يحس بالارتياح «لأحمد سويداني» وانه يحاول تجنبه باستمرار، ولكنه طمأنهم بقوله: إنني فوق كل شكوك، «فليس هناك في القيادة السورية من يشك بي».

لقد نصحه مسؤولو «الموساد» بأن يتصرف بحذر، فمثلاً أمروه بأن يمتنع عن البث لمدة ١٤ يوماً، وحتى بعد تجدد البث أمروه بأن يختصر قدر الامكان، ففي الأسابيع التي سبقت عودته الأخيرة الى «إسرائيل» كان يبث بشكل شبه متواصل، بل عدة مرات في الساعة نفسها، وكانت مدة كل مرة من البث تسع دقائق، ولأجل التغطية على نشاطه فقد عمل كوكيل تجاري في دمشق.

المال.. ونجاح الجاسوس

عندما وصل «كامل أمين ثابت» للمرة الأولى الى دمشق في ١٠ يناير ١٩٦٢، قدّم نفسه كتاجر يهتم بتصدير منتجات سورية الى أوروبا واجزاء اخرى من العالم، وقال لمحدِّثيه انه يملك شركة كبيرة للاستيراد والتصدير في الأرجنتين، وانه أقام في بروكسل شركة «دافيمكس»، وانه يملك حسابات تحتوي على مبالغ باهظة في بنوك بروكسل وزيوريخ.

وقد عمل في البداية كمُصَدِّر للمنتجات السورية للخارج، ولكن فيما بعد سمح له رجال «الموساد» بامتلاك بضائع كمالية في أوروبا واستيرادها الى دمشق، وعليه كان الهدف من زيارته الأخيرة الى بروكسل في طريق عودته الى دمشق، اختبار طرق مختلفة لهذا الاستيراد، ومن الطريف الاشارة الى ان كوهين حتى في خضم هذه الأعمال المتشابكة والواسعة فانه لم ينس أبناء عائلته: ففي ٢٣ نوفمبر أرسل رسالة الى ناديا من بروكسل، كتب فيها: سلام عليك من بلجيكا. بهذا اليوم يبلغ عمر «شاي» شهراً واحداً، لذلك أرسل إليك هذه الرسالة متمنياً له حياة الى المائة والعشرين، ولكم جميعاً قبلاتي الحارة والقلبية.

كما ترك مع ضابط الارتباط رسالة إضافية كان مقرراً أن ترسل في موعد متأخر من إيطاليا، وفيها تمنيات بالسنة الجديدة، وقد كتب فيها باللغة الفرنسية: ناديا العزيزة، بعض الأسطر لأتمنى لك سنة طيبة، آمل أن تكون هذه السنة سنة مليئة بالسعادة لكل العائلة. قبلاتي الى الأعزاء فيفي وعيرين وشاؤول ولك تحيات من صميم القلب. ولكنه لم يَدُرْ بخلده انه في الطريق الى النهاية.

في ظروف عادية، ربما كانت الاحتياطات المتبعة كافية ومناسبة للحفاظ على هوية «كامل أمين ثابت» في دمشق، ولكن في ٣ أغسطس وقع حادث في دمشق أثار قلق قيادة الجيش السوري، وبشَّر ببداية النهاية لإيلي كوهين، ففي هذا اليوم عند الساعة السادسة صباحاً، حدث إطلاق نار على الحدود السورية مع «إسرائيل»، وحينها حصل تشويش في جهاز الاتصال بين قيادة الجبهة في القنيطرة وبين قيادة الجيش السوري في دمشق ولمدة خمس دقائق متواصلة لم تتمكن قيادة الجبهة من إبلاغ دمشق أية رسالة لاسلكية.

وهنا أصر «التحري» أن سبب التشويش هذا هو بث سري تصادم في ذلك الصباح مع موجات بث القيادة السورية، وهنا ألقى الكولونيل «سويداني» على عاتق أحد مساعديه وهو «عبد الكريم ناصف» الذي كان على رأس جهاز التجسس المضاد مهمة الكشف عن مصدر البث الغريب.

وبعد فك الوحدة بين مصر وسوريا في سبتمبر ١٩٦١، كان الاتحاد السوفياتي قد زود سوريا بأجهزة الكترونية للكشف عن أي بثّ مضاد أو غريب، وبما أن عبد الناصر رفض الانفصال من طرفه

وظل مصراً على اسقاط النظام السوري الحاكم، فقد كان يشك أن وراء هذا البث عناصر ناصرية، وهنا طلب «سويداني» خبراء سوفيات لتشغيل هذه الأجهزة وتأهيل السوريين لاستعمالها، وعندما لم تعثر سوريا بواسطة هذه الأجهزة على طرف خيط يقود للناصريين أدخلت هذه الأجهزة الى المخازن ولم يستعملها أحد.

أخطر معلومات عن سوريا

ولكن عندما حدث التشويش المذكور أعلاه على الجبهة في ٣ أغسطس، أخرجت الأجهزة من المخازن، ولكن الخبراء لم يتقنوا استخدامها، فتوجه صلاح جديد الى موسكو طالباً المساعدة، وعليه أرسل السوفيات خبراء وفنيين لاصلاح الأجهزة، وبعد ذلك عملوا الى جانب السوريين للكشف عن مصادر البث. وبما أن الشكوك كانت تدور حول مصر، فقد تركزت عمليات البحث في البداية على الأحياء الفقيرة التي سكن فيها أنصار عبدالناصر[١].

وعلى مدار شهر سبتمبر، ظلت تجوب شوارع دمشق بين الخامسة مساء والسابعة صباحاً سيارتان من صنع سوفياتي، الأولى من نوع «مولوتوفا»، والثانية من نوع «لادا»، حيث جلس في الأولى ثلاثة أشخاص، سائق وخبيران في الاتصال اللاسلكي، أحدهما سوري والثاني سوفياتي، وأما في الثانية فقد كان الكولونيل ناصف

---

(١) المواطن العربي متهم دائماً! بدل أن يكون موضع ثقة حكومته، كما ان الخطر الذي يتوقعه أي نظام عربي من نظام شقيق يسبق توقعاته لمخاطر حقيقية من العدو الصهيوني. ولو حدث صدفة اكتشفت خلايا سياسية في الأحياء الشعبية «الفقيرة» في دمشق، مؤيدة لأي نظام عربي، لتمكن كوهين من ممارسة نشاطه التجسسي، وربما توقف البحث عنه ولم يتم كشفه.

ومعه ضابط برتبة كابتن من المخابرات السوفياتية، وقد مشطت السيارتان الأحياء الجنوبية للمدينة. ولكن العمليات لم تكشف عن شيء.

لم يعرف «كامل أمين ثابت» عن هذا التمشيط، وواصل بث المعلومات الى «إسرائيل»، بشكل مطول، وفي أوقات متتالية، ففي الفترة ما بين ١٥ مارس و٢٩ أغسطس ١٩٦٤، مثلاً، بعث إيلي كوهين الى «إسرائيل» أكثر من مئة رسالة، امتدت كل واحدة لأكثر من تسع دقائق ونصف، مثل هذا البث لم يكن ليجرؤ أي جاسوس على إرساله، كما احتوى هذا البث على: ما جرى في جلسة الحكومة، ومن هم أصحاب مراكز القوى في الحزب والجيش، وأين هي مواقع اللواء العاشر لقوات المشاة التي كانت قيادتها في الخشنية، وكم عدد الدبابات في القنيطرة، وان ثلاثة طيارين سوريين قتلوا أثناء التدريب، ووصول ١٣ مدرباً سوفياتياً جديداً، وانه تقابل لفترة قصيرة مع الرئيس السوري أمين الحافظ، ومعلومات أخرى من هذا المستوى.

خطأ أم إحساس بالخطر

في سبتمبر ١٩٦٤، قبل أسابيع من وصوله لاسرائيل لقضاء إجازته الأخيرة، وقع حادث أثار الرعب في نفوس مسؤوليه في إسرائيل، فحسب التعليمات حظر عليه أن يستعمل في برقياته حرفاً معيناً من الحروف اللاتينية، حيث ان هذا الحرف محفوظ للحالات الطارئة، واستعماله في البرقية معناه أنه اعتقل، ولكنه استعمل هذا الحرف في مطلع سبتمبر في احدى برقياته، مما أذهل مرؤوسيه، ولكن قبل أن يفكروا بالقيام بأي عمل، وصلت برقية أخرى تلغي الأولى وتقول «ان كل شيء على ما يرام»، لقد علم أخوه «افرايم» بهذه الحادثة والذي كان حلقة الوصل بين «الموساد» والعائلة، فسارع لاستيضاح الأمر، لكن قائد الوحدة طمأنه قائلاً: ماذا تقول؟ .. ان إيلي بخير وسيأتي لقضاء إجازته العادية في «إسرائيل» بعد بضعة أسابيع.

واليوم، بعد واحد وعشرين سنة[١]، يسأل هذا السؤال: هل نجم هذا الخطأ عن توتر، كما ادعى فيما بعد؟.. أو أن إيلي أحس بخطر ما ولكن كعادته حاول أن يخفف من وطأة الخطر وأن يتجاهل

(١) إشارة الى الطبعة الأولى الأجنبية لهذا الكتاب.

الإنذارات.

مهما يكن من أمر فإن الخبراء السوفيات الذين جاءوا الى دمشق لمساعدة رجال المخابرات السوريين عادوا الى موسكو، ولكن الكولونيل «سويداني» لم يتوقف، فقد أمر رجاله بمواصلة أعمال التمشيط وان يطيلوا ساعاتها من الخامسة مساء حتى الثامنة صباحاً، و«كامل» لم يعرف عن ذلك شيئاً، وبعدها رجع لمواصلة إجازته الأخيرة الى «إسرائيل» في **أكتوبر ١٩٦٤**.

أخطر مفاجأة لكوهين

إضافة الى التوتر والقلق الذي خيم على «إيلي» في إسرائيل بسبب الازدواجية في حياته وقع في تلك الأيام حادث أثار غضبه وأقنعه أن أسراره معروفة لدى جميع أفراد عائلته.

ففي الأيام الأولى لإجازته هذه اجتمع بأخيه «موريس» الذي كان يعمل في الجيش، لقد كان موريس وسيطاً بين إيلي و«ناديا»، وكان معروفا في العائلة كمعتد ومتفاخر بنفسه، وفي ربيع ١٩٦٣ طلب موريس أن ينتقل من عمله في البريد الى عمل أهم. وبعد أن اجتاز عدة امتحانات جند في يوليو ١٩٦٣ للعمل في الموساد لفترة تجريبية «ستة أشهر»، وقد درب على فك الرموز في الوحدة المسؤولة عن الجواسيس في الدول العربية، وحتى ان لم يكن مقبولاً أن يعمل شقيقان في الوحدة نفسها، فان المسؤولين عن موريس آمنوا أن السرية المطلوبة وأسلوب التصنيف المتبع سيمنعان موريس من معرفة أن أخيه يعمل في دمشق، أو ماذا يعمل هناك، كان إيلي يعرف في وحدته كجاسوس بثلاثة أحرف، وكان يرسل معلوماته باللغة الفرنسية، وبعد فك الرموز كانت توزع المعلومات بتوقيع «منشه» وبالرغم من ذلك استطاع موريس أن يعرف الكثير عن

مهمة أخيه في دمشق.

بعد عودة إيلي الى دمشق في ختام إجازته في ديسمبر ١٩٦٣، استطاع الحصول على هاتف إضافي في سوريا بحجة ضرورة اتصالاته الخارجية بأوروبا، وأوصل بالطبع رقم الهاتف الى «إسرائيل» وفي أكتوبر ١٩٦٤ حين كانا يجلسان في منزل إيلي في «بات يام»، سأل إيلي موريس ان كان لديه هاتفاً في بيته الجديد في «رمات جان» فأجاب موريس نعم، وأخذ يملي على أخيه الهاتف الجديد. وعندما شحب وجه إيلي واستفز بشدة لأن موريس أملى عليه رقم هاتف كامل ثابت في دمشق.

وواضح أن هذا لم يكن رقم هاتف موريس، ولكنه ذكره ليشير الى أخيه أنه يعرف السر، وهنا قطع إيلي المحادثة وأسرع بالاتصال مع المسؤولين عنه قائلا: «كيف تجرؤون على الاستهانة هكذا بحياة الناس؟.. كيف وصل رقم هاتفي الى أخي موريس؟.. أهكذا تحمون «مقاتليكم». وبالطبع لم تقنعه الإجابة التي سمعها، وفي أعقاب ذلك وقعت مشادة حادة بين الأخوين، حيث نفى أنه يعيش في دمشق، ووبخ أخاه لأنه لا يحفظ سراً، وأن حبه لذاته واعتداده بنفسه أهم لديه من أي اعتبار آخر وخاصة ضرورات الأمن.

مجمل هذه التطورات دفعت أفرايم لمحاولة إقناع إيلي بألا يعود إلى سوريا، لكن إيلي رفض ذلك بشكل قاطع، فقد ادعى أن الحالة على الحدود مع سوريا متوترة وعليه أن يقوم بواجبه، ولكن قبل سفره الى أوروبا في طريقه الى دمشق أوصى إيلي رؤساءه بأن يقدموا موريس لدورة ضباط، وبهذا عمل على ابعاد أخيه عن الوحدة التي يعمل فيها، ولسخرية الأقدار فقد أنهى موريس الدورة في الثاني

من مارس ١٩٦٥ أي بعد . . أسابيع من إلقاء القبض على إيلي، وفي نفس اليوم الذي سافر فيه «أفرايم» و«ناديا» زوجة كوهين الى أوروبا، في محاولة يائسة لتجنيد الرأي العام العالمي لإنقاذ حياة «أكبر جاسوس إسرائيلي».

أزمة تحويل مياه الأردن

عندما عاد كامل أمين ثابت الى دمشق من بروكسل في ٢٦/ ١١/ ١٩٦٤، عاد الى مدينة مختلفة تماماً عن تلك التي غادرها في أكتوبر، كان جو الحرب مخيماً على المدينة، إضافة للصراعات الداخلية، فقد ساد الحدود مع إسرائيل جو متوتر بسبب البرامج العربية لتحويل مياه نهر الأردن، والتي استهدفت منع إسرائيل من استغلالها لتطوير النقب.

في حينه نقل كامل الى «إسرائيل» معلومات كاملة عن هذا المشروع، وعندما عاد إلى «إسرائيل» في أكتوبر ١٩٦٤ اجتمع مطوّلاً بضبّاط الجيش الإسرائيلي، ومن بينهم قائد سلاح الطيران حيث ناقشوا مختلف مشاريع التحويل العربية، ولكي لا تعرف هويته فقد تحدّث مع الضباط من وراء ستار من القماش حيث سمعوا صوته ولم يروا وجهه.

لقد تفحّص الخبراء الإسرائيليون مختلف البرامج العربية لتحويل مياه نهر الأردن، ووصلوا إلى استنتاج أنها قد تحرم إسرائيل من ١٠٠ مليون متر مكعب من المياه، وهذه تشكل ثلث المياه التي جرت في المشروع القطري للمياه الذي تزود فيه اسرائيل النقب،

وعليه فان فقدان هذه الكمية سوف يرفع من نسبة الأملاح في بحيرة طبريا، وعليه أصرت إسرائيل على ضرب هذا المخطط. ولكنها أرادت فعل ذلك دون الدخول في مواجهة شاملة.

وفي مطلع نوفمبر ١٩٦٤ حين كان إيلي في تل أبيب، بدأ السوريون في الاعلان لتحويل مياه «بانياس» في أربعة مناطق، وفي ١٣ نوفمبر وقعت حادثة عسكرية خطيرة في هذه المنطقة، حيث استخدمت إسرائيل ولأول مرة الطائرات والدبابات ضد أهداف في عمق المنطقة السورية، وقعت هذه الحادثة عندما بدأت مواقع سورية بإطلاق النيران على دورية إسرائيلية وبقصف مستوطنات حدودية وهي «دان، ودفنا وشتار يشوف» ولإسكات النيران السورية، استخدم الجيش الإسرائيلي ٤٠ طائرة، وقصفت بالدبابات المواقع السورية في المنطقة وبالتالي تسببت للسوريين بخسائر فادحة.

كوهين يكشف أخطر مساعدي إيخمان

في هذا المناخ المتوتر عاد كامل الى دمشق، ولكن لأسباب أمنية حظر عليه استخدام أجهزة الموريس لمدة اسبوعين. وقد التزم بالتعليمات في البداية، ولكن حادثاً غير متوقع حدث له في بداية ديسمبر عام ١٩٦٤ دفعه لمخالفة الأوامر، ففي الأول من ديسمببر دعي «كامل» مع صديقه التاجر «كامل الخشن» الى حفلة غداء في بيت ماجد شيخ الأرض، وهو رجل متقلّب، ساعد إيلي على التسلّل الى دمشق عبر الحدود اللبنانية قبل ثلاث سنوات مضت، كان ماجد طاهيا جيداً، وعندما استضاف أصدقاءه في بيته، لم يراع تعاليم الاسلام حيث قدم على الطاولة كل ما لذ وطاب من المشروبات الروحية وأنواع اللحوم، وبدأ بالحديث عن ماضيه في ألمانيا النازية، لقد سمع كامل هذه القصص من قبل، ولكن كانت فيها هذه المرة بعض التجديدات، ففي تلك الأيام لم يلتق ماجد «بأدلوف ايخمان» وما زال يعرف «ردماخر» أحد مساعدي «ايخمان» في تنفيذ مخطط الحل النهائي لتصفية المسألة اليهودية. قال ماجد: ان «ردماخر» ما زال يعيش في دمشق واسمه اليوم «روزاليو».

أثارت قصص ماجد حب استطلاع «كامل» فأصغى لها جيداً،

وتذكر كيف انه في مايو ١٩٦٠ عندما جنّد لجهاز المخابرات، أثار القبض على «ايخمان» عاصفة في اسرائيل، وحتى عندما أرسل الى دمشق أوصاه المسؤولون عنه بأن يحاول الكشف عن نازيين في سوريا، وان كانوا يعملون في أجهزة الجيش السوري، وبفضل ماجد تعرّف على بعض الألمان، ولكنهم لم يكونوا في خدمة الجيش، وها هو بالصدفة يحصل على معلومات مثيرة كهذه.

من هو ردماخر؟

«فرانس ردماخر» ولد عام ١٩٠٦، وكان رئيس دائرة اليهود في وزارة الخارجية الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية، وبحكم وظيفته قدّم الى وزير الخارجية «رينبتروب» وثيقة أوصى فيها بتهجير يهود أوروبا الى مدغشقر، كما شارك في مؤتمر «قانزه» والذي تقرر فيه الحل النهائي للمسألة اليهودية، واشترك ابان الحرب العالمية الثانية مع ايخمان، وكان له ضلع في تهجير عشرة آلاف يهودي من فرنسا وبلجيكا وهولندا، والقضاء على ٣٣٠٠ يهودي من صربيا وبلغاريا، ولذا حكم عليه في نيرمبورغ عام ١٩٥٢ بالسجن لمدة ٤١ شهراً، وبعد وقت قصير هرب من السجن وبمساعدة أصدقائه وجد ملجأ في «مونتفيديو» عاصمة الأورچواي.

وبعد اعتقال «ايخمان» ونقله الى إسرائيل وإعدامه، أحس «ردماخر» بالضيق وعدم الأمان، وبمساعدة «أوتو سكور شاني» قائد الكوماندو النازي الذي كان مسؤولاً عن تخليص موسوليني من أيدي الحلفاء، استطاع «ردماخر» الحصول على جواز سفر اسباني مزيف باسم «فرانسيسكو روزاليو»، وفي عام ١٩٦١ جاء الى دمشق، وكان معروفاً لدى من لهم علاقة عمل مشتركة معه، كرجل أعمال وكاتب

للتقارير الصحافية الى الصحف الألمانية عن الشؤون الاقتصادية في سوريا والبلدان العربية.

اثر اكتشافه لـ«ردماخر» قرر «كامل أمين ثابت» التحرك بسرعة، وقد أعرب عن شكوكه بأن يكون «روزاليو» هو «ردماخر»، ولكن عندما تطوع ماجد شيخ الأرض بأن يتصل بصديقه النازي، مقترحاً عليه أن يأتي لزيارته ليعرفه بصديقه الأرجنتيني، وجاء «روزاليو» فعلاً، وهنا تيقّن «كامل أمين ثابت» من شخصية النازي المذكور، وذلك بعد حديث دام ٤٥ دقيقة، استرسل فيها ماجد و«كامل» في التحدث مع «روزاليو» الذي يسكن في بيت جميل في الطابق العلوي من عمارة تقع في شارع شهبندر قرب البنك المركزي السوري، والبيت محاط بسور وفي الحديقة انتشرت الورود بشكل مرتب.

كان «ردماخر» ذو مظهر أنيق، وكان يبدو أقل من عمره الفعلي وهو ٥٩ عاماً، أجاد اللغة الاسبانية، وأما زوجته فقد بدت أصغر منه سناً، خلال الحديث لم تذكر شيئاً عن ماضيها في ألمانيا، وانما استعادت ذكرياتها مع الأيام التي أمضتها في بيونس أيرس، وقالت انها على استعداد دوماً لأن تعود إليها.

علمنا.. نريد الأهم

بعد هذا اللقاء، نقل إيلي عند الثامنة صباحاً في يوم الثاني من ديسمبر ١٩٦٤ الى إسرائيل معلومات مفصّلة عن «ردماخر» وطلب توجيهات رؤسائه. ولكن بعد اسداء الشكر لله على خدماته في اقتفاء أثر رجل النازية أصدرت إليه أوامر واضحة جداً: «دعك من هذا الموضوع ولا تحد عن الأهم». ولكن ما من أحد من مسؤوليه في «إسرائيل» قدم له أية ملاحظة على المخالفة التي ارتكبها بتجديد البث بعد ثمانية أيام فقط من عودته الى دمشق.

الخطأ القاتل.. بداية النهاية

وهكذا فان انكشاف «ردماخر» الذي كان في نظر إيلي كوهين أبرز إنجازاته قد عمّق لدى إيلي ثقته بنفسه وهذا كان السبب في مواصلته البث المكثف.

لم تكن هذه المخالفة الأولى، فالتوتر المتصاعد على الحدود الاسرائيلية السورية دفع للبث في أوقات متقاربة، وهذا ما حوله من جاسوس عليه التحلي بالدقة المتناهية الى انتحاري على أمواج الأثير، لقد أحس إيلي أنه وسط معركة مفتوحة، فبدل أن يراعي الحذر كجاسوس، كشف عن صدره أمام رصاص السوريين، فمنذ الثاني من ديسمبر ١٩٦٤ وحتى القبض عليه في ١٨/ ١/ ١٩٦٥، أرسل كامل ٣١ برقية وجميعها في الثامنة والنصف صباحاً، وكان يبث في بعض الأحيان مرتين يومياً، وذات يوم وصل نداء من إسرائيل الى جاسوس دمشق: «ماذا حدث لفرقة الطائرات ميج ٢١، فالطائرات لا تظهر في السماء، وإذا حلقت فهذا يعني أن الطيارين لا يستعملون اللاسلكي». وفي اليوم نفسه عند الرابعة بعد الظهر، رد إيلي على برقية إسرائيل، قتل طيار أثناء التدريب، وقتل آخر أثناء

تحطم طائرة على أرض المطار، وثالث قتل بسبب نشاط سياسي معاد، وأبعد طياران آخران عن وظيفتهما بسبب ما قالاه ضد قائد سلاح الطيران.

فوزي الخبَّاز يتبرع بالمعلومات

لقد أثار تصرف إيلي كوهين قلق المسؤولين عنه وخصوصاً «الملاك» الذي كان يتساءل: ما الذي يدفع لأن يرسل برقيات مطولة؟، فبعض الرسائل لم تكن قيمتها بحجم الخطورة المترتبة عليها، ولكن البعض الآخر كان شديد الأهمية. مثل المعلومات التي حصل عليها من «فوزي الخباز» أحد المسؤولين في المشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن، عن النية في البدء بتنفيذ المشروع.

ففي أعقاب اتفاق رؤساء أركان الجيوش العربية، تقرر تركيز القوات السورية والأردنية والسعودية والمصرية على الحدود لردع إسرائيل عن القيام بعملية عسكرية، . . فقد ركزت سوريا لواءين، كما ركّزت مصر قوات في سيناء، وحرّكت السعودية والعراق قواتهما في اتجاه الحدود الأردنية، وفي ٣٠ ديسمبر ١٩٦٤ نقل كوهين «معلومات مفصلة عن ذلك في برقية كانت مدتها ١٦ دقيقة».

ذهل «الملاك»، ولكن المستفيدين من هذه المعلومات كانوا راضين تماماً، فقد نقل كوهين معلومات هامة كان يجب أن تقرر في ١٠ يناير ١٩٦٥، وقد طلبوا منه إيضاحات أكثر، ونقل «الملاك» طلبهم الى «كوهين» لكنه أدرك الحاجة لإعادة التأكيد على أن لا يزيد

كوهين مدة البث لكل رسالة عن ٩ دقائق، لكن كوهين لم يصغ لكل هذا.

في مطلع يناير ١٩٦٥، أصبحت مهمة كوهين أكثر صعوبة، فالمعلومات التي تسربت من جهاز الحكم أدت الى توتر شديد في مختلف مكاتب الحكومة السورية ـ وخاصة المعلومات التي سربها «فوزي الخباز» أحد المسؤولين السوريين في المشروع العربي لتحويل مجرى نهر الأردن ـ وتعمق الشعور بأن مصدر التسريب هو الدوائر الداخلية في الحكومة، وهنا قرر «سويداني» أن يكثِّف نشاطه ورقابته، وأن يستعمل أحدث ما لديه من أجهزة رقابة لاسلكية، كما قرر فحص أحياء الأغنياء، الصالحية وأبو رمانة، وزاد من فترة الرقابة اللاسلكية على هذين الحيين، حتى الساعة التاسعة صباحاً، كل هذا وكوهين لا يعرف شيئاً عن هذه الحملة.

وفي ٣ يناير، عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، التقطت سيارة «المولوتوفا» اللاسلكية، إشارات من جهة حي «أبو رمانة»، ولكن عندما وصلت الى المنطقة، خيم على المنطقة صمت لاسلكي مطبق، وبمحيط قدره ١٠٠ متر حول بيت «كامل أمين ثابت» تقع سفارات النرويج واليمن والسعودية وقطر، ومقر مراقبي الأمم المتحدة، وأما شقة «كامل» فتقع في الطابق الرابع من عمارة «سعيد رجوح» في الزقاق المؤدي الى المدرسة الثانوية المهنية مقابل قصر الضيافة الرسمي، وهي قريبة كذلك من مقر القيادة العسكرية العامة ووزارة الخارجية.

وفي الخامس من يناير أخبر الكولونيل «ناصف» رئيسه «سويداني» انه التقط إشارات من جهة مقر مراقبي الأمم المتحدة،

وكان على رئيس شعبة الاستخبارات السورية أن يقرر فورا ان كان سيحترم حصانة الأمم المتحدة، أو أنه سيقتحم البناية، فقرر الاقتحام، طرق سويداني على الباب بنفسه، ولكنه لم يتلق أي جواب، ووفقاً للأوامر خلع أفراد الشرطة باب الدخول، وتسببوا بأضررار لواجهة العمارة، ولكن التفتيش لم يكشف عن شيء، حيث لم يكن أحد في المبنى، ولم يكن هناك أي جهاز للبث، فقامت الشرطة بإصلاح الأضرار على حسابها، وتركت رسالة اعتذار جاء فيها: «لقد اقتحم البيت لصوص، ولكن الشرطة فاجأتهم، فهربوا!».

أما ضابط الأمم المتحدة، فقد قدم تقريراً الى السكرتارية العامة للأمم المتحدة حول الحادثة، في نيويورك، الا أن هذه المعلومات وصلت إلى إسرائيل متأخرة أي بعد توقيف إيلي كوهين بتسعة أيام.

بداية حركة فتح

وفي تلك الفترة، تم تشكيل تنظيم فدائي فلسطيني أطلق على نفسه اسم «فتح»، وازداد التوتر على الحدود الإسرائيلية ـ السورية، وكانت دمشق وراء تشجيع ودعم «ياسر عرفات» قائد التنظيم المذكور، وقد أيد «سويداني» هذا التنظيم بحماس، حيث رأى في ذلك تحقيقاً لنظريات «ماوتسي تونغ والجنرال جياب»، وقدم للتنظيم مساعدات على مستوى الوسائل القتالية والاستخبارات، وفي النقاش الداخلي على مستوى القيادة العسكرية السورية العليا، أيد «سويداني» موقف الفريق «صلاح جديد» الراديكالي ضد الموقف المعتدل للرئيس «أمين الحافظ»، فيما يتعلق بدعم «فتح»، وقد منحت «فتح» صفة تنظيم سري ووضع تحت تصرفها بعض الضباط السوريين الذين عملوا في «وحدة الكوماندوس الفلسطيني»، وكان قسم من هؤلاء قد اشترك في تخطيط العمليات المسلحة وقسم آخر شارك في عمليات حية، وقد آمن سويداني أنه عن طريق التسلل الى عمق الأراضي الإسرائيلية، يمكن بناء وتوسيع «جيش التحرير الشعبي الفلسطيني»، الذي سيأخذ على عاتقه مسؤولية محاربة إسرائيل.

وفي العاشر من يناير ١٩٦٥، استأنفت سوريا عمليات تحويل نهر الأردن بالقرب من بانياس، وزادت من حشوداتها في منطقة «اللحمة» على ملتقى الحدود الأردنية ـ السورية ـ الاسرائيلية، كما أعلنت حالة الطوارىء في سلاح الجو السوري، وحلقت الطائرات السورية في سماء دمشق، وازاء تصاعد التوتر أصدر رئيس الحكومة الاسرائيلية «ليفي اشكول» تحذيراً صارماً الى سوريا جاء فيه «ان مياه الأردن هي كالدم الذي يجري في عروقنا»، وهدد بالقيام بعملية عسكرية إسرائيلية.

أبلغ كوهين أصدقاءه السوريين بأن وعكة ألمّت به، ولذا، فإنه لن يقابل أحداً لعدة أيام، وخلالها كان يراقب قيادة الجيش السوري لساعات متواصلة، ولكن «سويداني» كان له بالمرصاد هذه المرة، فقد راقب بدقة جميع الذين يزورونه في منزله، وفي تلك الأثناء، كان «سويداني» قد سأل الرئيس السوري أمين الحافظ، ان كان واثقاً من هوية «المهاجر الأرجنتيني» فرد الرئيس أنه ليس واثقاً.

وسقط كوهين

وفي ١٥ يناير وقعت مفاجأة في جهاز الاستخبارات السوري، فإن الضابط «زهر الدين»، ابن شقيق رئيس الأركان السوري السابق قد جاء من القاعدة التي يعمل فيها في «إدلب» ونام في بيت «كامل أمين»، وفي اليوم التالي اكتشف صدفة سلكاً موصولا بمذياع ترانزستور في بيت مضيفه، وعندما سأل ما هو السلك قال «كامل» انه يلتقط بواسطته إذاعات بالاسبانية من الأرجنتين.

وفي ١٨ يناير زالت الشكوك حول هوية «كامل أمين ثابت» الحقيقية، ففي الساعة الثامنة والنصف صباحاً عندما التقطت الإشارة من جهاز الموريس أمر «سويداني» بقطع التيار الكهربائي في البناية التي يسكنها «كامل»، فتوقفت الإشارات، وعندما أعيد التيار الكهربائي، تجددت الإشارات. وفوراً اقتحم المنزل ثلاثة رجال سوريين برئاسة الكولونيل سويداني، وخلعوا المدخل، واقتحم أحدهم غرفة نوم كوهين شاهراً مسدسة فوجد إيلي في غرفته يتلقّى برقيات نقلت إليه من إسرائيل، فهجم عليه رجل الأمن ليمنعه من إطلاق الرصاص من مسدسه أو بلع أقراص سامة، وخلال أقل من دقيقة، انتهت العملية وكشفت هوية أحد أهم الجواسيس الاسرائيليين.

ارتسمت على شفتي الكولونيل سويداني ابتسامة النصر، فمنذ شهور كان يتحفظ من «كامل» وأما اليوم، فقد تأكدت شكوكه، نظر سويداني الى كامل وسأله غاضباً: «لقد تمت اللعبة، فمن أنت يا كامل أمين ثابت؟».

حاول كامل في البداية التنكر والادعاء بأنه مهاجر عربي من الأرجنتين، ولكنه اعترف بعد دقائق فقال: **«أنا العدو بينكم - إسمي إيلي كوهين»**. . .

في هذه اللحظات، أعطى المذياع بعض الإشارات فقام كوهين بفك رموزها، والتي كانت «نطلب منك معلومات أخرى»، فقبل دقائق كان كوهين قد نقل الى المسؤولين عنه تقريراً عن محادثاته مع اللفتنانت «معزّة زهر الدين»، وعندما سمع صوت خلع الباب تمكن من بث الحرف المتفق عليه في حالة اعتقاله، وهنا أمر «سويداني» كوهين بإعطاء «الموساد» معلومات كاذبة أملاها عليه سويداني نفسه، وحتى في هذه المرة، نجح كوهين في تسريب الحرف المتفق عليه بشأن اعتقاله.

قام رجال الأمن السوريون بعملية تفتيش واسعة في منزله، وسحبوا السلك من الشباك، واكتشفوا جهاز الموريس الاضافي الذي كان مخبئا في صندوق الشباك، وعثروا على أفلام كان ينوي إرسالها الى «إسرائيل»، وفي أحد جوارير الحمام، عثروا على بعض علب الصابون الإنجليزي «ياردلي»، والتي كانت مواداً متفجرة معدة لإتلاف أجهزة الاتصال أو تخريب معدات سورية إذا نشبت حرب مع إسرائيل، كما عثروا في جيبه على دفتر شيكات يدل على وجود مبالغ باهظة مودعة باسمه في البنوك السويسرية.

سويداني يحاول تضليل الموساد

حاول جهاز المخابرات السوري لبضعة أيام، تضليل المخابرات الاسرائيلية بواسطة خارطة الشيفرة، وبالضغط على كوهين لإرسال معلومات كاذبة الى الموساد، لكن إسرائيل لم تقع في فخ سويداني، فبعد ساعات قليلة من بث الحرف السرِّي، كان الموساد الاسرائيلي قد حصل على معلومات إضافية عن اعتقال «كامل أمين ثابت»، فقد حدَّث ضابط من قوات الأمم المتحدة كان قد عبر الحدود الى إسرائيل، في ذلك الصباح، عن طريق جسر بنات يعقوب، حدَّث ضابط الارتباط الاسرائيلي بأن السوريين اعتقلوا جاسوساً يعمل لصالح إسرائيل بإسم «كامل أمين ثابت»، وعندها لم يعد لدى «الموساد» أدنى شك بأن إيلي كوهين قد اعتُقِل.

وعندما اكتشف «سويداني» ان لعبته لم تنجح، نقل الى رئيس الحكومة الاسرائيلية «ليفي اشكول» البرقية التالية: «كامل وأصدقاؤه حلُّوا ضيوفاً علينا لوقت ما، وعن مصير الباقين سنبلغكم لاحقاً». التوقيع المخابرات السورية.

في الليلة ذاتها، في ٢٤ يناير ١٩٦٥، أذاع راديو دمشق نبأ اعتقال «إيلي كوهين» أو «كامل أمين ثابت»، وفي الليلة ذاتها، بدأت

المعركة من أجل إنقاذ حياة الجاسوس الاسرائيلي. ولكن بعد مئة يوم من البيانات التي قدَّمتها المحكمة السورية ضد إيلي كوهين، أُعْدِم هذا ودفن في مقبرة اليهود في دمشق، ومن حينها وحتى اليوم، ما تزال سوريا ترفض إعادة جثة كوهين لدفنها في «إسرائيل».

الذهول... والحيرة في دمشق

أثار اعتقال كوهين ذهولاً في دمشق، وتحولت القضية الى جزء من المشاكل الداخلية في سوريا والى موضوع اهتمت به مختلف الدول العربية.

ـ هل كان كامل أمين ثابت جاسوساً إسرائيلياً؟

ـ يستحيل، هذه مجرد دعابة!

كانت هذه بعض ردود الفعل في العاصمة السورية، فقد عَرَف الجميع أن كامل كان مقرَّباً من النظام، وأنه أيّد مبادىء البعث، وكان صديقاً لكبار ضباط الجيش وموظفي الحكومة، لقد تساءل هؤلاء، هل غشت عيوننا ولم يتمكن أحد منّا من التقاط حقيقة هذا الرجل؟

من الصعب تقييم دور جاسوس وحيد، أما في تقييم إيلي كوهين بالذات، فالأمر أكثر صعوبة حيث تتشابك في الأمر، أمور معقدة، ربما كان تعقيدها نفسه غطاءً جيداً لإيلي كوهين، مثل الصراع بين أجنحة البعث، والصراع مع ناصر والناصريين، وصراع البعثيين بدمشق وبغداد، كما ان اشتداد هذه الصراعات بعد اعتقال كوهين أدى إلى إيقاع أقسى العقوبات به ليكون «كبش فداء»،

لقد استغلّت الصحافة اللبنانية مسألة كوهين، بشكل خاص، هذه الصحافة التي «تموِّلها مصادر عربية عديدة»، وعليه، شنت هجوماً موسَّعاً ضد القيادة السورية، ونشرت القصص المبالغ فيها عن تغلغل كوهين في جهاز النظام الحاكم في دمشق، وعن ضخامة إنجازاته، قصصاً امتزج فيها الواقع بالخيال، «كما ان الشهادات التي قدِّمت في المحكمة لا يمكن الركون الى مصداقيتها لأن النيابة العامة أجبرت المتّهمين على الإدلاء بها بعد تعذيب جسدي ونفسي»[١].

(١) يدعي المؤلف ان المعتقلين عذبوا نفسياً وجسديا، وسواء أكان هذا صحيحاً أم لا، فمجرد ذكر المؤلف لهذه النقطة يعني ان الاسرائيليين لا يعرفون فنون، ولا حتى المبادىء الأولية للتعذيب. ومن الثابت ـ حتى بشهادات بعض الإسرائيليين أنفسهم ـ ان المعتقلين العرب في الضفة والقطاع والجولان وجنوب لبنان، كانوا وما زالوا، محط تجارب وفنون التعذيب فقد استشهد حتى عام ١٩٨٤ عشرون شخصا هذا غير التشوهات والعاهات المزمنة التي لحقت ببعض المعتقلين.

نجاحات تثير الخجل

أما نجاحات إيلي كوهين، كما نشرتها الصحف العربية والعالمية فكانت: «أنه كان عضواً في قيادة حزب البعث، وأنه تحدّث في اجتماعات نظّمها الحزب، وجمع التبرعات في الأرجنتين لتمويل نشاطات الحزب، وكان مرشّحاً لمنصب وزير في الحكومة، كان الصديق الشخصي للرئيس أمين الحافظ، الذي تعرف عليه عندما كان الأخير ملحقاً عسكرياً في الأرجنتين، وأهدى زوجته معطفاً من الفرو، وكان وسيطاً في مصالحة بينه وبين رئيس الحكومة الأسبق صلاح البيطار المقيم في منفاه الاختياري في أريحا، ورافق رئيس أركان القيادة العربية المشتركة الفريق المصري «علي عامر»، أثناء جولته على طول خط تحويل مياه الأردن في هضبة الجولان، وفي بيته، نظّم سهرات ماجنة شارك فيها ضباط سوريون كبار وعلى رأسهم وزير الدفاع الفريق «ممدوح جابر»، ووزير الداخلية الكولونيل «محمد خير بدوي»، ووزير الاصلاح الزراعي الكولونيل «عبد الكريم الجندي»، وقائد قوات المظليين والكوماندوس الميجور «سليم حاطوم»، وقائد المرسى القومي «حميد عبيد» وضباط آخرون.

ونُشر كذلك أنه أثناء حفلات المجون التي نظّمها إيلي كوهين

في بيته، كان يصور نساء المدعوين وهنّ في حالات شائنة وأنه هدد نساء الضباط الكبار بأنه سيوصلها لأزواجهنّ إذا لم يقدّمن له معلومات عن ضباط الجيش، ولكن المبالغة في الصحافة العربية وصلت الى حد القول ان الكشف عن هوية إيلي كوهين، جاء على يد جهاز الاستخبارات المصري وليس السوري، فقد ادّعت الصحافة اللبنانية ان الاستخبارات المصرية هي التي كشفته أثناء عرض صوره وهو برفقة «علي عامر»، في جولته بهضبة الجولان.

حتى اليوم ما زال من الصعوبة بمكان الفصل بين الواقع والخيال، ولكن أمراً واحداً يمكن إثباته بوضوح وهو استحالة ان يكون إيلي كوهين عضواً في حزب البعث، حيث أصرّ عليه مسؤولوه بالاحتفاظ بجواز سفره الأرجنتيني، وعدم قبول الجنسية السورية، وذلك بهدف تأمين الحماية له وحرية مغادرته البلاد في الحالات الطارئة، كما أمر بأن لا يتخذ موقفاً سياسياً وان لا يتعاطف مع أي تيار في القيادة السورية، خوفاً من أن يتعرّض للتصفية في حالة وقوع انقلاب ضد التيار الذي قد ينحاز إليه، وان التزامه كسائح أرجنتيني ليس فقط لتسهيل خروجه من سوريا متى يشاء، وانما أيضاً ليكون مبرراً لعدم انحيازه الى أي تيار في القيادة السورية، متماثلاً مع الرئيس أمين الحافظ، ولذلك فليس غريباً أنه عندما كُشِفَتْ هويته الحقيقية، كان أمين الحافظ ورجاله ضحايا هذه القضية، فقد سقطت الحكومة وأُبْعِدَ ستون ضابطاً عن مناصبهم وأُعْدِمَ ١٧ ضابطاً آخرين.

واليوم، وبعد واحد وعشرين عاماً[١]، يصعب الاستهانة بدور

(١) بالإشارة الى الطبعة الأجنبية الأولى.

«إيلي كوهين»، وحتى وإن كانت هناك مبالغة فيما نشر عنه، فان الحقيقة الثابتة هي أنه عمل في دمشق ثلاث سنوات متواصلة، نقل فيها معلومات موثوقة الى إسرائيل، وكانت تقاريره نموذجية، حيث دقق في ذكر مصادره، وكان منضبطاً في صياغة التقارير حيث لم يبالغ، بل وأظهر براعة في تحليل الوضع السياسي الداخلي في سوريا، والتطورات على الساحة العربية، وعلى العكس من الانطباع العام عنه فقد كان هادئاً متواضعاً، وكان إنفاقه للمال على نفسه بسيطاً جداً بالقياس لنفقات جواسيس آخرين، وعلى الرغم من ذلك كانت دائرة معارفه واسعة جداً ومتنوعة، أحب النساء وأحببنه، أما عن مدى اتساع دائرة معارفه، فيمكن معرفة ذلك أنه غداة اعتقاله اعتقل في سورية أكثر من خمسمائة شخص، وقد أفرج عن معظم المعتقلين بعد انتهاء التحقيق، وأما الباقون، فكانوا ٦٩ شخصاً، بينهم ٢٧ إمرأة، ولاحقاً تقلّص هذا الرقم حيث قُدِّم للمحاكمة ٤٠ شخصاً بينهم ٩ نساء، وقد أُدِين سبعة أشخاص من الأربعين، وأُفْرِجَ عن الباقين بمن فيهم النساء.

امتداد التحقيق الى مصر ولبنان

لم يقتصر التحقيق في قضية إيلي كوهين على سوريا، وانما شمل مصر ولبنان أيضاً، كما كشف الرئيس أمين الحافظ انه عندما علم جهاز المخابرات السوري أن إيلي كوهين ولد في الاسكندرية، توجهت دمشق الى القاهرة وطلبت معلومات عنه، ولكن وصل الرد المصري بعد إعدام الجاسوس الاسرائيلي، وقد جاء في الرد: «ان السلطات المصرية لا تملك معلومات تُدِين كوهين».

وبعد سنوات قليلة، وعندما أطلقت مصر سراح اليهود الذين تورطوا في قضية لافون، قال أحدهم وهو «روبرت داسا» انه فور اعتقال إيلي جاء إليهم ضباط في الشرطة المصرية، وطلبوا منهم تفاصيل عن الجاسوس الاسرائيلي، فأجابوا جميعاً: «أن إيلي لم يكن معهم ولم ينضم الى شبكتهم».

وفي لبنان، اعتقلت الشرطة في الفترة نفسها «شؤولا كوهين» وهي إسرائيلية عملت على تهريب اليهود الى فلسطين، واتهمت أيضاً بالتجسس لصالح إسرائيل، وبسبب التشابه في اسم العائلة فقد اعتقدت دمشق ان إيلي كوهين هو شقيقها، أو أحد أقاربها، وقد قالت شؤولا لاحقاً: انه ذات يوم أُدْخِلَ الى غرفتها في السجن رجل

أنيق يلبس بذلة رمادية، كان برفقة رجال أمن سوريين ولبنانيين، وبناء على ردود فعل الإثنين استنتج المحققون ان لا معرفة أو قرابة بينهما، حيث استمر اللقاء بضع دقائق، وبعد أن أعيد الرجل الى دمشق قال لها السجّانون اللبنانيون ان الرجل كان «إيلي كوهين».

صراع حول المحاكمة

في اليوم التالي لاعتقاله، انقسمت القيادة البعثية السورية الى قسمين: الأول وعلى رأسه الرئيس أمين الحافظ، الذي أعطى أهمية عالية للرأي العام العالمي، وردود الفعل التي تُثار في الخارج إذا ما كان هناك تزييف في المحاكمة، ولذلك أيّد إجراء محاكمة علنية مع توفير الدفاع القضائي المناسب عن المتهمين. وقد أيّدت هذا التوجه مجموعة كبيرة من الضباط الذين قاتلوا على الجبهة الاسرائيلية، حيث قدّموا للقيادة عريضة طالبوا فيها بمحاكمة علنية للجاسوس الاسرائيلي.

والثاني وهو مكوّن من مجموعة كبيرة من الضباط، بينهم عدد من الذين كانوا يزورون «كامل أمين ثابت» في بيته يؤيدهم رئيس الأركان «صلاح جديد»، أدرك هؤلاء أن المحاكمة العلنية سوف تكشف عن سلوكهم وقد تؤدي الى إعدامهم، ولذلك كانوا معنيين بإخفاء الحقيقة وإبعاد كوهين عن الجمهور لتصفيته بأقصى سرعة.

رافقت هذا الصراع بين الطرفين صدامات دموية بين فرقة الجيش المؤيدة لـ«صلاح جديد» والمؤيدين لخصومه، وبالطبع فإن هذا لم يسهّل الأمور على إيلي كوهين، فكان يعذبه رجال المعسكر

الأول أحياناً ليخفي بعض الحقائق، ويعذبه رجال المعسكر الثاني ليبتزّوا منه معلومات تساعدهم في الصراع ضد خصومهم[(١)].

هذا الصراع الداخلي بدأ في اليوم التالي لاعتقال كوهين، وقد شارك فيه الرئيس أمين الحافظ شخصيا، وفي مقابلة مع مراسل مجلة «الأسبوع العربي» اللبنانية، قال الرئيس السوري: «عندما نظرت الى عينيّ «كامل أمين ثابت» شككت بعروبته، ووجّهت إليه بعض الأسئلة في الدين الإسلامي فظهر عليه الإرتباك، طلبت منه أن يقرأ الفاتحة فردّد بعض الكلمات ثم سكت، عندئذٍ قال: «انه ترك سوريا وهو صغير ولذا فإنه لا يحفظ الفاتحة عن ظهر قلب». وأضاف الحافظ: «في نظري ان هذا كان كافياً لإثبات أن «كامل» كان يهودياً وليس مسلماً، ومع الوقت قابلته بضع مرات في السجن، وقدّمت له سيجارة، ولكنه قال انه لا يدخن ولا يتعاطى المشروبات الروحية، وفي جميع لقاءاتي معه عرفت انه انسان قوي الشخصية، واثق من نفسه جداً، وقد أثبت في الساعات العصيبة أنه شجاع».

هذه الشهادة التي قدّمها الرئيس السوري عن لقاءاته بالجاسوس الاسرائيلي هامة جداً، فبالطبع لم يكن أمين الحافظ

---

(١) يحاول المؤلف أن يصوّر للقارىء ان العرب دائماً هم في حالة صراع على السلطة حتى في مثل هكذا موضوع خطير، وهذا منطق صهيوني تعوّدنا عليه منذ وقتٍ طويل، وبغضّ النظر عن حدوث هكذا تعذيب أم لا فإن اليهودي دائماً يحاول أن يثير الرأي العام العالمي وهذا واضح لدى الجميع مع أن التعذيب وفنونه أصبح من ركائز هذا العدو في التعاطي مع المقاومين المناضلين في زنزانته ومعتقلاته ـ الخيام ـ عسقلان ـ أنصار ١ ـ أنصار ٢ ـ وغيرهم حتى وصل الأمر ان محكمة العدو العليا قد شرّعت مؤخراً التعذيب بفنون متعددة وأصبح من ضمن القوانين المرعية الإجراء.

ليكلف نفسه عناء مقابلة «كوهين» في السجن فقط للتأكد ان الجاسوس يهودي أو عربي، فقد أنجز المحققون ذلك من قبل، ولكن يبدو ان الرئيس قصد بهذه اللقاءات التوصل الى اتفاق مع «كوهين» بأن لا يذكر أسماء الرئيس ووزراء وضباط كبار كانوا بعلاقته بهم مصدر معلوماته، وبالمقابل على أن يعامله القضاة برفق ولا يحكموا عليه بالإعدام.

ولقد أثبتت المحكمة ان كوهين التزم بالاتفاق ولكن القضاة لم يفعلوا .

قاد الصراع الداخلي في سوريا الى تعقيد كبير في وضع كوهين، هذا إضافة الى تأثير خاص ناتج عن صراع أجنحة الجيش وصراعات الساحة العربية.

ففي الثالث من يناير ١٩٦٥ ، قبل اسبوعين من اعتقاله صدرت في دمشق قرارات بتأميم ٧٠٠ شركة صناعية وتجارية، كما أمّمت قيادة حزب البعث مصانع النسيج والاسمنت والسكر والزيت والمعلبات والأدوية، وقد أعقبت هذه القرارات موجة من تهريب الأموال من البلاد الى الخارج، وخلال يوم واحد هرب من سوريا الى لبنان أكثر من ١٢ مليون دولار.

كان هناك تعاون بين التجار والناصريين والمتدينين ضد الاتجاه العلماني للبعثيين، ومن أجل مكافحة المتآمرين أقام «أمين الحافظ» في ٧ يناير محكمة عسكرية خاصة لمحاكمة أعداء النظام، وعُيّن الكولونيل «صلاح دله» رئيساً لهذه المحكمة، وهو ضابط مدفعية سابق ومن الموالين لأمين الحافظ، وكان في هيئة المحكمة

كذلك «سليم حاطوم ورباح الطويل».

ولم يكتفِ «أمين الحافظ» بذلك، بل اتخذ خطوات عملية مثل كسر إضراب التجار، حيث أمر بكسر أقفال المتاجر المضربة، واعتقل زعماء المضربين والمحرضين، وأمر بشنق عشرة تجّار نظّموا الاضراب، وعيّن «مفتي» جديد لدمشق.

وللتغطية على الضائقة الاقتصادية، ولتبرير النفقات الجديدة على الجيش، كان على النظام أن يثبت انه لا يقف فقط ضد أعداء من الداخل، وانما ضد أعداء من الخارج أيضاً، وعلى رأسهم إسرائيل وأميركا «ومصر والعراق».

شبكة التجسس الأميركية وأهدافها

وهكذا، ففي ٢٤ يناير ١٩٦٥، وفي نفس اليوم الذي أُذيع فيه نبأ اعتقال «إيلي كوهين» كشفت المخابرات السورية عن شبكة تجسّس أميركية أيضاً، كان من بين أعضائها مواطن عراقي وبعض الضباط القدامى في الجيْش السوري، والذين كان بعضهم لاجئاً سياسيا في لبنان.

نظّمت هذه الشبكة عام ١٩٦٣ عندما جند «فرحان الأتاسي» أحد أقرباء «نورالدين الأتاسي». الذي كان عضواً سابقاً في مجلس قيادة الثورة السوري بل ونائباً للرئيس، على يد وكالة المخابرات الأميركية، وأُرسل لدورة تجسس لصالح الولايات المتحدة. وكان «الأتاسي» في السابعة والثلاثين من العمر، متزوج من «جوان غانم» وهي أميركية من أصل لبناني وكان لهما طفلان، وعند عودته الى سوريا عمل الثاني في السفارة الأميركية في دمشق، والذي كان مسؤول الـ «سي. أي. إيه» في دمشق، حيث طلب من «فرحان» معلومات عن أسلحة جديدة قدّمها الاتحاد السوفياتي للجيش السوري، وكانت المخابرات الأميركية على استعداد لدفع خمسة آلاف دولار عن كل نشرة توضيحية عن هذه الأسلحة، وستة آلاف

دولار عن كل مدفع مضاد للطائرات قطر ٨٥ ملم، وألف دولار عن كل قنبلة لهذا المدفع، وبواسطة الكولونيل «عبد المعين الحاكمي»، وهو ضابط في سلاح المدفعية السوري والذي هاجرت عائلته من الهند الى دمشق، استطاع «فرحان» الحصول على ١١ قنبلة وسلمها «لسنوداون».

ولم تكتفِ الولايات المتحدة بهذه المعلومات، بل حاولت زعزعة كيان البعث، كنظام مؤيد للاتحاد السوفياتي، فقد أقامت خليّتين سريّتين مسلّحتين، الأولى برئاسة «د. عدنان المصري» والثانية بقيادة الضابط الأسبق «خليل بريج»، وقد التقى الاثنان في بيروت مع وكيل المخابرات العراقية «أحمد جزردجي» حيث التزموا بتهريب عشرة آلاف بندقية الى لبنان لتدريب منفيين سوريين وبإشراف مدربين أميركيين، ولهذا الهدف استعان «سنوداون» بخدمات «هـ. فليشر» الذي عمل هو أيضاً سكرتيراً في السفارة الأميركية في بغداد، وكان مسؤول الـ«سي. أي. إيه» في العراق، وحسب لائحة الإتهام هاجم أعضاء هاتين الخليّتين السريّتين مسجد بني أمية في دمشق، وقَتلوا بعض الضباط السوريين، كما حرّضوا ضد إجراءات التأميم وشجّعوا تهريب الأموال من سوريا الى لبنان.

كيف اكتُشِفَت شبكة التجسس الأميركية؟

وانكشفت الشبكة بعد تسرّب المخابرات السورية الى صفوفها حيث ظهر أن «فرحان الأتاسي» والكولونيل «الحاكمي» حاولا تجنيد الليفتينانت «سعيد كساب حسن» طمعاً بالحصول على معلومات هامة، وأن يقيم لهما خلية سرية داخل الجيش، وبالتنسيق مع المخابرات السورية تظاهر الكولونيل «حسن» بالتعاون مع الولايات المتحدة والعراق بهذا الشأن، ولذلك التقى مع «فولتير سنوداون» وحصل منه على سلفة بمبلغ ٣٠ ألف ليرة سورية وقام بتحويلها الى المخابرات السورية، وعندما توفّرت للكولونيل «سويداني» المعلومات اللاّزمة أعلن عن اعتبار «فولتير سنوداون» كشخصية غير مرغوب فيها وطرد من سوريا، وأما «فرحان الأتاسي» والكولونيل «الحاكمي» فقد قدما الى محكمة عسكرية خاصة في ١٥ فبراير، وفي ١٨ فبراير حُكم عليهما بالإعدام، وقد أعدم «فرحان» يوم ٢٢ فبراير ١٩٦٥، في ساحة المرجة بدمشق، وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام وأما الكولونيل «الحاكمي» قد أعدم بالرصاص في نفس اليوم في دمشق[١].

---

(١) من الجدير بالذكر في هذا السياق، ان معظم الجواسيس، أو الحلقات الأولى للتجسس في البلدان العربية، وخاصة في مصر وسوريا، كانت إما من الأجانب تماماً، أو من عرب متزوجين من أجنبيات، أو عرب عاشوا في المهاجر فترة طويلة، مثل أسرة الحاكمة، أو الاختراق باسم عرب المهاجر «حالة كوهين».

حملة الموساد لإنقاذ كوهين

في هذا الوضع الداخلي المعقّد والشائك في سوريا ألقي القبض على «إيلي كوهين» يوم ١٨ يناير ١٩٦٥، وفي هذا الجوّ المتوتّر والمعقّد كان على إسرائيل أن تخطّط للدفاع عنه والعمل على إنقاذه، وبما أن رئيس «الموساد» «منير عميت» لم يكن يملك الوسائل العسكرية لإنقاذه، فقد عمل على تأمين حماية مناسبة له وذلك عبر محكمة علنية عادلة، على أمل التحدث مع سوريا على تبادل جواسيس كما هو متبع بين دول العالم.

وبالنسبة للموساد، كان الهدف إذن كسب الوقت والحيلولة دون خلق جو يحول دون إنقاذ كوهين في اسرائيل والعالم أيضاً، ووفقاً لذلك اجتمع «ليفي اشكول» رئيس وزراء إسرائيل «ومنير عميت» مع رؤساء تحرير الصحف في اسرائيل، وطلبا منهم عدم نشر تفاصيل عن القضية الى حين انتهاء المحاكمة.

كما كُلِّف محام فرنسي بالدفاع عن كوهين في المحكمة، وبطلب من «الموساد» التقى «يوسف هداس»، المستشار السياسي في سفارة إسرائيل في باريس مع المحامي «جاك مارسيه» وطلب منه السفر فوراً الى دمشق لضمان محاكمة عادلة لإيلي كوهين.

واضح لماذا اختار «الموساد» محامياً فرنسياً، فالولايات المتحدة كانت على خلاف حاد مع سوريا، وفرنسا هي الدولة الوحيدة من الدول الكبرى الغربية التي كانت لها علاقات مع سوريا، كما ان الرئيس السوري نفسه كان قد عاد قبل فترة قصيرة من زيارة لباريس حيث أجريت له هناك عملية جراحية. كما ان اختيار «جاك مارسيه» لم يكن صدفة أيضاً، فهو نفسه كان في «جيش فرنسا الحرة» في الحرب العالمية الثانية، وقد دافع في السابق عن جزائريّين ومغربيّين، ناضلوا لتحرير بلادهم.

ووافق «مارسيه» على استلام القضية، وباقتراح منه ضم اليه أيضاً المحامي «بول اريفي» رئيس نقابة المحامين الفرنسيين كمحام معروف دولياً، و«اريفي» كان قد عمل في جيش فرنسا الحرة في لبنان، وتعرف على المحاكم في سوريا ولبنان وبواسطته تمّ التعرّف على محام لبناني مقرّب من حزب البعث في سوريا وله معرفة شخصية بالرئيس السوري.

حصل «جاك مارسيه» على تفويض، ولكن بصعوبة، وبما أن «مارسيه» لم يتمكن من الحضور الى دمشق كمندوب للموساد، ومبعوث لدولة لا تعترف سوريا بوجودها، فقد كان من اللازم العثور على أحد أقارب «كوهين» ليوقّع على كتاب التفويض كي يتمكن المحامي من الدفاع عن إيلي، وأما «ناديا»، زوجته، فكانت قد وضعت حديثاً، وكانت تعاني من أزمة نفسية كما أصيبت بصدمة حادة عندما اعتقل زوجها، وفي حالتها هذه لم تتمكن من السفر الى باريس للتوقيع على كتاب التفويض، وبمساعدة أبناء العائلة تم الوصول في باريس الى «فيكتور صبان» ابن أخيه.

كان «فيكتور» قد هاجر الى فرنسا في ٢٨ ديسمبر ١٩٥٦، وعاش في باريس مع زوجته وأطفاله الأربعة، وعندما اعتقل «إيلي» كان «فيكتور» في مرحلة الحصول على الجنسية الفرنسية، وحينما استُدعي الى مكتب «مارسيه» للتوقيع على كتاب التفويض، كان يبدو مندهشاً، فقد سأل المحامي اذا كان التوقيع يعيق حصوله على الجنسية الفرنسية، كما أبدى خشيته من الضجة التي قد تثيرها الصحف.

حاول «يوسف هداس» تهدئته وطمأنته، ولكن فيكتور تجاهله وتوجه الى المحامي «مارسيه» قائلا: ألا تعتقد ان الشرطة الفرنسية لن تعتدي علي؟.. فقد يدّعون ان لي علاقة بعمل إيلي التجسسي، فنظر اليه «مارسيه» نظرة ازدراء وقال له: ان فرنسا هي «أنا» والمحامي «اريفي»، فنحن في فرنسا نحترم العلاقات العائلية، أعدك بأن أعمل كل شيء ممكن لتحصل على الجنسية الفرنسية ولكن الآن وقّع على كتاب التفويض، ان الوقت ضيّق وإيلي يتعذب في السجن[1].

---

(١) لقد حاول المؤلف، أن يخلق من إيلي أسطورة، بهدف مخابراتي وسياسي، أكثر منه تصويراً للحقيقة. وهو هنا يصوّر فيكتور بالشخصية الضعيفة والأنانية. وقد تجاهل ـ عامداً ـ حقيقة هامة، هي ان فيكتور ـ مثله مثل كثير من اليهود ـ لا يشعر بالانتماء لـ«إسرائيل»، فكيف يطلب منه التضحية لجواسيسها. فلو كان فيكتور من مؤيدي إسرائيل لهاجر الى هناك، ولكن كل همه كان منصباً على الحصول على جواز السفر الفرنسي، فلم يكترث لحديث عميل المخابرات الاسرائيلي «يوسف هداس». أما المحامي الفرنسي فكان هدفه اقتناص فيكتور ليستلم قضية تخلق منه شيئاً على مستوى العالم، علاوة على مردودها المالي الضخم. والمؤلف هنا يرفض وجود شخصية اليهودي الطيّب الذي يرى أن يعيش في مجتمعه في كافة دول العالم ويقول: «ما شأني أنا بمشاكل إسرائيل؟».

خطة العمل للدفاع عن كوهين

سافر المحامي الفرنسي الى بيروت في ٢٩ يناير ١٩٦٥ لمقابلة رجل الارتباط اللبناني، وفي اليوم التالي يوم السبت، في غرفته بفندق فينيسيا الذي يطل على البحر المتوسط اجتمع بالمحامي اللبناني «خوري» وقد شرح له «مارسيه» خطة العمل: يجب أن نجد في دمشق محامياً معروفاً وعلى صلة بالنظام بحيث يكون بوسعه التقاء كوهين في السجن، كما عبَّر «مارسيه» عن رغبته في أن يحضر لاحقا جلسات المحكمة، فكَّر «خوري» ملياً، ثم قال، «إيلي كوهين ـ كامل أمين ثابت» الرجل في دمشق، نعم، ان الصحافة مهتمة جداً بهذه القضية، أظن انه من الأسهل تحويل رجل الى امرأة من أن تجد محامياً يدافع في دمشق عن جاسوس إسرائيلي، هل تعرف ما معنى الدفاع عن إيلي كوهين؟ انه عمل انتحاري.

واقترح «خوري» اختيار أحد المحامين اللبنانيين المسيحيين، هو عضو في القيادة القومية لحزب البعث، وصديق شخصي «لأمين الحافظ»، وطلب «خوري» أن يطلق إسماً مستعاراً على هذا المحامي اللبناني وهو «بطرس كرم» استدعاه الى الفندق وبعد فترة قصيرة جاء «كرم» الى غرفة «مارسيه»، كان كرم شاباً ذا شارب كثّ ويبدو عليه

الحزم والذكاء، ولأنه شخصية سياسية فقد كان الحديث معه سياسياً بالطبع.

قال كرم: ان اسرائيل «جسم غريب في الشرق الأوسط، وسرطان في قلب الأمة العربية» فقال له «مارسيه»: يجب أن تكون سوريا معنية بأن يحاكم كوهين محاكمة علنية. وأن تسمح لمحام محايد بحضور المحكمة كمراقب، وأضاف ان دولاً كثيرة تسجن أو تعدم الخائنين فيها، ولكنها تحاول ألاّ تعدم الجواسيس من الدول المعادية لها، حتى انها توافق على تبادل الجواسيس. وتحت أسلوب الإغراء والإقناع قبل «كرم» المهمة.

الوسيط «بطرس كرم» يصل دمشق

وتحدث كرم هاتفيا مع أحد أصدقائه في دمشق، ورتّب زيارة «لمارسيه» في العاصمة السورية، خرج «مارسيه» برفقة «خوري» الى الكنيسة الفرنسيسكانية في بيروت ليحصل هناك على شهادة بأنه مسيحي كاثوليكي، فلقد قيل له انه بدون هذه الشهادة لن يسمح له بدخول دمشق.

وفي يوم الأحد ٣١ يناير ١٨٦٥ سافر «مارسيه وخوري» في سيارة «كرم» الى دمشق وعلى الحدود سهّل «كرم» حصول «مارسيه» على تأشيرة دخول الى دمشق، وخلال ربع ساعة تجاوزوا نقطة الحدود، ووصلوا دمشق بعد ذلك بساعة حيث نزلوا في فندق «بني أمية الجديد».

ذهب «كرم» الى مقر حزب البعث وعاد بعد ساعتين وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة: ان الأمور ستنجلي، غداً ستلتقي «بوليد طالب» وزير شؤون الرئاسة في مكتبه فالتحقيق مع إيلي كوهين لم ينته بعد، ولذلك وكما هو متّبَع في فرنسا أيضاً، لا نستطيع مقابلته، ولكن فور انتهاء التحقيق بإمكانك مقابلته وحضور المحكمة كمراقب، أما حول توجيه رسالة الى كوهين فعليك أن تستوضح غداً

أثناء مقابلتك لطالب، وعليك ملاحظة ان الوزير لا يتكلم الفرنسية ولغته الإنجليزية متوسطة، ولكن «مأمون الأتاسي» سكرتير مكتب الرئيس سيقوم بالترجمة.

أعرب المحامي الفرنسي عن ارتياحه لجهود كرم، فقد تطوّرت الأمور أسرع بكثير مما كان يتصور «هل تعقَّل السوريون وقرروا تحسين سمعتهم في العالم». لم يكن أحد واثقاً من ذلك، تشاور مارسيه مع كرم حول امكانية تعيين محام سوري للدفاع عن كوهين، اتصل كرم «بعمبري» وهو محام عيّن في الماضي وزيراً للعدلية وعرف كرجل ليبرالي ومدافع عن حقوق الانسان، تحدث «عمبري» معهما بالفرنسية ولكنه لم يبدِ استعداداً للدفاع عن كوهين، ولا أن يوصي بمحام سوري آخر، وقال «القضية معقدة جداً.. ويجب أن أفكّر ثانية» وكان واضحاً ان «عنبري» خشي على حياته ولم يكن على استعداد لتوريط محامين سوريين آخرين.

وفي اليوم التالي، الاثنين الأول من فبراير ١٩٦٥ التقى مارسيه «بوليد طالب» في قصر المغتربين، وكان السؤال الأول من الوزير: من وقَّع على كتاب التفويض؟ وعندما ذكر المحامي اسم «فيكتور صبان» في باريس، طلب الوزير أن يعرف عن حالته المادية، وان كان بإمكانه توكيل محام لإيلي كوهين؟، وشرح «مارسيه» العلاقة العائلية التي تربط الإثنين، ووعد بأن يرسل كتاباً آخر موقعاً بيد «ناديا كوهين» زوجة الجاسوس الإسرائيلي.

وقطع طالب لمارسيه عدة وعود قائلاً: ان إيلي كوهين سيحاكم أمام محكمة علنية، وبإمكان محاميه الفرنسي ان يعيّن لنا محامياً سورياً، وان يكون هو مستشاراً لذلك المحامي، وبإمكانهما

الاجتماع بكوهين بعد انتهاء التحقيق وحتى ذلك الوقت بإمكان المحامي أن يترك رسالة الى كوهين يبلغه فيها ان «مارسيه» عيّن محامياً للدفاع عنه، وقد أخذ «مأمون الأتاسي» على عاتقه ابلاغ «مارسيه» في باريس فور انتهاء مدة التحقيق وعن الوقت الممكِن فيه مقابلة كوهين، وبالنسبة للرسالة قال له مأمون الأتاسي: كن مطمئناً، فالرسالة ستصل اليوم.

وفور عودته الى باريس في ٤ فبراير ١٩٦٥ بعث «مارسيه» الى «طالب» ببرقية ضمّنها ملخصاً لمحادثتهما، ولكن هذه البرقية كغيرها من الرسائل التي أرسلت فيما بعد لم تحظ بأي جواب.

وتلاحقت التطورات ولكنها لم تؤكّد تفاؤل «كرم»، ففي ٩ فبراير صدر أمر في دمشق يمنح المحكمة العسكرية الخاصة برئاسة الكولونيل «صلاح الضلّلي» صلاحيات البتّ في القضايا المرتبطة بأمن الدولة. وتقرر إحالة ملف إيلي كوهين لهذه المحكمة. وفي ٢٤ فبراير شنّت الصحافة اللبنانية هجوماً على دمشق ونشرت معلومات كثيرة، فيها، منها ما هو صحيح ومنها ما هو خيالي، عن قضية الجاسوس الاسرائيلي، والشيء نفسه فعلته، الصحافة في بغداد والقاهرة، وفي جميع هذه الصحف طرح التساؤل: كيف تمكّن جاسوس إسرائيلي من العمل لمدة ٣ سنوات بهذه الحرية ودون عراقيل؟؟

وقد زادت الهجمات الخارجية والصراع الداخلي عمقاً، وازداد الضغط على الرئيس «أمين الحافظ» والمقربين منه، وبعد أن نجح الجنرال «صلاح جديد» في اضعاف مواقع مؤسسي حزب البعث، «ميشيل عفلق وصلاح البيطار» قرر شن الهجوم على

«الرئيس الحافظ»، وكان هدف جديد هو إقامة نظام سياسي في دمشق، أشد حزماً وأكثر دقة في توجهه الاشتراكي. ففي نظر الضباط اليساريين، كان «أمين الحافظ» «يمينياً». ورغم ملاحقته لرجال الدين فقد وصف بأنه يقرأ الأدبيات الدينية ويتعاطف مع قوى سنيّة[1] محافظة.

في ٢٥ فبراير، أذاعت وكالة الأنباء الفرنسية، خبراً من دمشق جاء فيه: «منذ ثلاثة أيام والجماهير المحتشدة في ساحة المرجة تنظر باحتقار الى جثة «فرحان الأتاسي» وهو مواطن سوري شنق بعد أن أُدِين بتهمة التجسّس لصالح الولايات المتحدة».

وفي ٢٦ فبراير ١٩٦٥ نشرت الصحيفة المسائية «فرانس سوار» صورة لهذا المنظر وكتبت تعليقا، «اليوم تبدأ في دمشق محاكمة لقضية تجسّس أخرى، وهي محاكمة إيلي كوهين الذي تسلّل الى قيادة البعث، وكان إيلي يعرف جيداً رئيس المحكمة الذي سيحاكمه، وانه كان مقرباً الى أحد وزراء الحكومة».

هذا الخبر أثار في إسرائيل قلقاً بالغاً حول مصير إيلي كوهين، وازداد هذا القلق بعد أن كشفت صحيفة «البعث» السورية في ٢٤/ ٢/ ١٩٦٥ أن محاكمة إيلي كوهين بدأت في ٢٢/ ٢/ ١٩٦٥ وأن الشهادات يُدلى بها في قاعة مغلقة، وهنا حثّت السفارة الاسرائيلية في باريس المحامي «مارسيه» على السفر فوراً الى دمشق. وفي ٢٦

---

(١) كما مرّ سابقاً من أساليب إثارة الفتن الداخلية في الوطن العربي فإن الكاتب في هذا الموقع يحاول إثارة هكذا نعرات ـ سني ـ شيعي ـ مسلم ـ مسيحي ـ وهكذا، ولكن مثل هذه الأساليب لم تعد تنطلي على القارىء العربي.

فبراير أبلغ خوري المحامي «مارسيه» أنه وفقاً للبنود ٦ و٧ من قوانين الطوارىء المعلنة في ٧ يناير ١٩٦٥ قرّرت المحكمة العسكرية حرمان إيلي كوهين من حق الدفاع القضائي.

في الليلة نفسها سافر «مارسيه» الى بيروت، وكان «خوري» في انتظاره حيث نقله الى فندق «الكزار» على شاطىء البحر. قال «خوري» ان كرم قد سافر الى دمشق في محاولة يائسة لتغيير القرار السوري، ولكنه، أي «خوري» لا يعلّق على ذلك آمالاً كبيرة، سيما وأن الصحافة اللبنانية تركّز هجوماً شرساً ضد نظام الحكم، وتصورها بالقيادة العاجزة عن الدفاع عن أمن الدولة، وعليه، اعتقد خوري أن النظام لا بد أن يلجأ للتضحية بكوهين للتستر ودون أن يتمكن أحد من الاستماع لأقواله.

وصل «مارسيه» الى دمشق يوم ٢٨ فبراير واتصل فوراً مع مأمون الأتاسي سكرتير رئيس الجمهورية الذي كان ينتظر هذا الاتصال، ورداً على ملاحظة المحامي بأن المحاكمة بدأت قبل أيام بناء على ما ورد في الصحافة أجاب الأتاسي مازحاً: «الصحافة؟، لا، ان التحقيق لم ينته بعد، سوف ينتهي على ما يبدو بعد أسبوع أو اثنين» وبعد ساعتين اجتمع «مارسيه» بالأتاسي في مكتبه وهناك أيضاً جدد سكرتير الرئيس وعوده الرسميّة بأن يعطى إيلي كوهين حق الدفاع عند بدء المحاكمة.

بعد هذه الحادثة خرج «مارسيه» لتناول طعام الغذاء مع «كرم»، الذي كان متفائلاً كعادته، حيث قال: منذ يومين وقيادة البعث تبحث هذا الموضوع، وقد أدرك قادة الحزب الإساءة التي ستحيط بسوريا أمام الرأي العام العالمي إذا ما أجريت محاكمة

مزيفة، كما قرر الحزب تعديل قوانين الطوارىء لضمان الدفاع في المحكمة عن الجاسوس الاسرائيلي. كان كرم مقتنعاً أن قيادة البعث ستقر التعديل في القانون في الليلة نفسها، وعندها يمكن تنظيم لقاء بين «مارسيه» وموكله «الاسرائيلي».

وفي المساء وبعد أن قام «مارسيه» بجولة في أحياء دمشق، عاد الى فندقه وعند المدخل قال له البوّاب: سيدي، سيدي، التلفزيون السوري يبث الآن محاكمة إيلي كوهين، لم يصدق المحامي الفرنسي ما تشاهده عيناه، حيث كان كل ضيوف الفندق مجتمعين في غرفة صغيرة يشاهدون محاكمة الجاسوس الاسرائيلي، كانت العدسة تنتقل ببطء بين وجوه المتهمين، وتتوقف عند القضاة. قرأ المدَّعي العام لائحة الإتّهام التي ضمت ١٦ فقرة، وبعد كل تهمة كان يطالب بعقوبة الإعدام. وكما ظهر في الجلسة الأولى فقد كان إيلي كوهين يجلس بارتياح ويتحدث بهدوء. كان متعباً ويبدو أكبر من سنّه، صعد «مارسيه» الى غرفته غاضباً، «حيث شعر أنه خدع وأذل. فلم يحدث أن خدعه أحد كما فعلوا في دمشق». في صباح ذلك اليوم قيل له ان التحقيق لم ينته، وها هي وقائع الجلسة الأولى تنقل على شاشة التلفزيون.

كان مارسيه مقتنعاً أن الرأي العام العالمي لن يطيق مثل هذا الخداع ولن يوافق على وضع يكون فيه المحقّقون هم المدعون والقضاة أيضاً، ولن يوافق على عدم وجود دفاع عن المتهم.

بعد دقائق، وصل «بطرس كرم» الى الفندق، كان هو مندهشاً كذلك، ولكنه ظل متفائلا، قال: «إنه أمر رهيب ومخجل، ولكن اللعبة لم تنتهِ، لقد تحدثت مع الرئيس «أمين الحافظ»، ووعدني مرة

أخرى بأن تقابل إيلي كوهين غداً كما أنك تستطيع أن تحضر المحاكمة كمراقب، وسيكون المترجم هو مأمون الأتاسي، فقاطعه «مارسيه» غاضباً: «ماذا بشأن المرافعة عن إيلي كوهين؟ أنا أعرف أن الجميع في دمشق بانتظار رؤيته معلقاً»، «لكن عمل الحكّام هنا مثير للدهشة، ان سوريا هنا تخلّد الأسطورة المنسوجة عن إيلي كوهين، وإذا لم تجرِ مرافعة في المحكمة عنه فإن الجميع سوف يصدقون القصص التي رويت عنه، بما في ذلك الشعب السوري نفسه». بعدها قال «كرم» لمارسيه أنه سيتصل بالرئيس في اليوم التالي ليحصل منه على جواب.

اتصال مع الحافظ

وفي اليوم التالي ١/ ٣/ ١٩٦٥ وصل «كرم وخوري» الى غرفة «مارسيه»، ومن غرفته اتصل «كرم» بالرئيس، وتحدث معه لمدة خمس دقائق وقد أصغى «خوري» للمحادثة، لم يقل شيئاً ولكنه كان يردّد: حسناً. . . حسناً، وبعد المحادثة قال كرم لمارسيه انه سيقابل إيلي كوهين في نفس اليوم. وسيتصل به «مأمون الأتاسي» فوراً لترتيب الموعد، وبشأن حضور مارسيه كمراقب في المحكمة، فإنها لم تحل بعد، ولكنه وعده بأن يجد لها حلاً.

سافر كرم الى بيروت، وبقي مارسيه مع خوري، وبعد وقت قصير دق جرس الهاتف وكان مأمون الأتاسي على الخط، حيث دعا مارسيه لمقابلة الوزير «وليد طالب» ووعده باللقاء مع كوهين في نفس اليوم. قال مارسيه لطالب، لا يهمّه أن يلتقي بإيلي كوهين في المحكمة أو في السجن، . . المهم أن يلتقيه.

ولكن بعد ساعة خاب أمل مارسيه، فقد اتصل الأتاسي وأبلغه أن رئيس المحكمة يرفض أن يلتقي مارسيه بإيلي كوهين، فطلب مارسيه مقابلة أمين الحافظ، ولكن «الأتاسي» قال له: هذا غير مجدٍ. وطلب مارسيه مقابلة «طالب» ولكن الأتاسي أجاب بأن الوزير مشغول وأن قرار المحكمة اتُّخذ بالإجماع ولا مجال للإستئناف،

فصرخ مارسيه غاضباً: «لا أعرف من الذي يقرّر؟ الرئيس أم رئيس الأركان أم مجلس الثورة؟ من الذي يقرر؟؟ . . هل «جمال عبد الناصر» هو الذي يقرّر مواقف سوريا؟ بالنسبة لي فأنا لا أستطيع السكوت أكثر، فبعد عودتي الى باريس سأعقد مؤتمراً صحافياً لاستنكار تصرفات الحكومة السورية».

لم يرد «الأتاسي»، وقطع المحادثة، وبعد دقائق كان خوري ومارسيه في طريقهما الى بيروت، فقد بات واضحاً لهما أنه في الصراع بين الحزب والجيش فإن للجيش الغلبة، وهكذا تقرر مصير إيلي كوهين.

بدأت المحكمة في ١٩٦٥/٢/٢٢، لكن وقائع الجلسة الأولى نقلت بعد عملية تحرير مناسبة، وفي ٢٨ فبراير انتهت المحكمة، وفي ١ مايو صدر قرار الحكم. لكنه نشر رسمياً في ٨ مايو. في مرحلة معينة من فتح ملف كوهين، أرسل رئيس الأركان السابق الجنرال لؤي الأتاسي من منفاه في باريس برقيّة الى خلفه «صلاح جديد»، حذّره فيها من نشر مواد مثيرة، حول علاقة إيلي كوهين بالقيادة السورية، حيث كان «الأتاسي» من بين الأشخاص الذين كان كوهين قد التقاهم في دمشق. .

وهكذا فقد أثبتت مجريات المحاكمة أن القرار كان قد أعد سلفاً، فرئيس المحكمة كان الكولونيل «صلاح ضللي» وهو من مؤيدي الرئيس أمين الحافظ، وكان معروفاً كرجل مهزوز، محب للنساء ومقامر ويكثر من شرب الكحول، وعلى الرغم من ذلك فقد عيّنه كل من «ميشال عفلق وصلاح البيطار» بعد ثورة البعث في مارس ١٩٦٣ مسؤولا عن تنظيم خلايا حزب البعث داخل الجيش.

أعضاء المحكمة

كانت للكولونيل «ضللي» علاقة بهذه القضية، فزوجته الثانية وهي مضيفة إيطالية، كانت تنقل دون أن تعرف رسائل إلى كوهين، فبواسطتها نقل الى شركة دافيمكس في بروكسل رسائل احتوت على معلومات مفصّلة عن الوضع في سوريا، حيث قال لها إيلي ان البريد في سوريا غير منتظم، وطلب منها أن تأخذ رسائله لتضعها في صندوق بريدي في روما. وكان قد تعرّف إليها بواسطة «صديقته هيفاء حموي» المضيفة في مطار دمشق، وفي وقت لاحق تزوجها الكولونيل «ضللي»، وبسبب تدخله لم يتم اعتقالها ولم تقدم للمحاكمة بل أن اسمها لم يذكر في المحكمة..

وأحد أعضاء هيئة المحكمة وهو الميجور «سليم حاطوم» والذي كان أيضاً من المقربين من الرئيس «أمين الحافظ»، الا أنه كان من مجموعة الضباط الذين تردّدوا الى بيت إيلي كوهين بشكل دائم وكانوا يخشون افتضاح علاقتهم به.

الميجور «حاطوم»، وسيم المظهر، وذكي، شجاع وطموح، وقد كان أثناء الوحدة المصرية السورية عضواً في اللجنة العسكرية التي أُقيمت في القاهرة. في صيف ١٩٦٣، اشترك في قمع

محاولات الانقلاب الناصرية في دمشق، ونظراً لإخلاصه للنظام عين عضواً في مجلس قيادة الثورة وعضواً في القيادة القطرية لحزب البعث، وكان هو أيضاً محباً للنساء، وعليه شارك في حفلات اللهو التي نظّمها إيلي كوهين وبين فترة وأخرى كان يطلب مفتاح شقّة كوهين للإنفراد مع إحدى صديقاته..

والشخص الثالث في هيئة المحكمة هو «محمد رباح الطويل»، خدم في سلاح المدفعية، وكان رجلاً عاقلاً ومتزناً، ولكنه حازم كذلك، وهو عضو في القيادة القطرية لحزب البعث وكان معارضاً للرئيس «الحافظ» بهدف إيصال الحكم لآخرين أكثر التزاماً بمبادىء البعث، ولذلك كانت محاكمة كوهين ورقة هامة في نضاله هذا.

في الجلسة الافتتاحية للمحكمة، خاطب الكولونيل «ضللي» الشعب قائلا: «أيها الشعب العربي، أيها المواطنون السوريون، هذه هي الحقائق والتفاصيل الدقيقة، كما ظهرت في التحقيق مع الجاسوس الاسرائيلي إيلي كوهين»..

ولكن الحقائق التي نشرت كانت قليلة، وبدل الحقائق نشرت المناقشات التي دارت بين رئيس المحكمة والمتهمين.

المحاكمة

في بداية المحكمة طلب إيلي كوهين محامياً ليدافع عنه، فبعد أن عرف نفسه بأنه إلياهو بن شاؤول وصوفي كوهين، ولد في الاسكندرية بمصر عام ١٩٢٤، ثم سأل:

كوهين: هل يمكنني أن أطلب محامي دفاع؟

الضللي: ارفع صوتك.

كوهين: أطلب محامي دفاع.

«ارتسمت على ملامح القضاة ابتسامة كأنها تقول: الجواسيس لا يحق لهم أن يطلبوا محامي دفاع».

الضللي: بما أن التهمة الموجهة إليك هي التجسس فقد تقرّر رفض طلبك، وفقاً للأمر الدستوري رقم ٦ لعام ١٩٦٢. إضافة إليه فأنت لست بحاجة الى محامي دفاع، فان جميع العملاء الصهاينة في الوطن العربي والمأجورين من أصحاب الصحف يدافعون عنك كما تدافع عنك أجهزة المخابرات الأجنبية، لست بحاجة الى محامي دفاع. حدّث المحكمة لماذا تدافع عنك الصحف؟..

كوهين: لا أعرف محرِّري الصحف ولا المراسلين ولا موظفي الإذاعات.

الضللي: انهم يدافعون عنك مقابل ما يقبضونه من الأموال.

كوهين: ربما.

الضللي: مثلك.

كوهين: لا، أنا مبعوث من دولتي، أما هم فيعملون مقابل المال.

الضللي: هل تسمعون؟ أيها المواطنون السوريون، انه يؤدي واجبه، بينما باع العملاء أنفسهم بالمال، انها أموالنا، فإسرائيل تحصل من الولايات المتحدة على الأموال، وتدفعها لهؤلاء العملاء. فما رأيك يا إيلي كوهين بمذيع راديو بغداد الذي يدعي بأنك تعرف القيادة السورية؟؟..

كوهين: انه مجنون.

جرت محاكمة كوهين بعد بضعة أيام من محاكمة عشرة تجار سوريين كانوا قد نظموا إضراباً في دمشق بمساعدة عناصر من المتدينين يعملون في أجهزة الدولة. وقد حاول رئيس المحكمة الإثبات بأن حزب البعث ليس مناهضاً للدين الإسلامي، ولذلك وجه عدة أسئلة الى كوهين، حول تعلّمه للدين الإسلامي:

رئيس المحكمة: ماذا علموك؟

كوهين: تعلمت الفاتحة وبعض الآيات القرآنية الأخرى.

رئيس المحكمة: لماذا علموك الدين الإسلامي؟

كوهين: قالوا ان الديانة الاسلامية مناسبة لي أكثر، لأن الديانة المسيحية أكثر تعقيداً، ولذلك سجّلوا في هويتي مسلم.

رئيس المحكمة: من علّمك أصول الإسلام؟

كوهين: سلمان، لا أعرف اسمه الكامل، ولكن أعتقد أنه مسلم، انه صغير نسبياً وأطول مني بقليل.

رئيس المحكمة: أي انتهزت الدين لتدخل عالم التجسّس، تظاهرت بالإسلام ليسهل عليك دخول سوريا، يخرب بيتكم. لقد نسي أسيادك في إسرائيل أنهم كلما مسّوا الاسلام تعرّضوا لمذبحة، انكم تنسون تاريخكم، هل تعرف التلمود؟

كوهين: كلا، لم أدرس التلمود، ولكنني درست التوراة.

رئيس المحكمة: كلنا نعرف التوراة، ولكن لماذا لم يعلموك التلمود؟ هل هذه تعليمات صهيونية جديدة؟

كوهين: لا أعرف.

رئيس المحكمة: الدين يا كوهين شيء عزيز، ان من ينطق اسم الله بكثرة لا يعني ذلك انه مسلم حقيقي، أنتم لا تعرفون قيمة الدين، لقد أعطيتم التلمود وجننتم به، ولكنكم زائلون، لقد ضللتم لأنكم ابتعدتم عن الديانة الحقيقية، سيأتي يوم ونتخلص منكم ومن كل عملائكم، ولن يبقى وقتها في الوطن العربي أي جاسوس أو عميل. كل العملاء والجواسيس سائرون الى الهلاك، ان شاء الله سنقضي عليكم بضربة واحدة.

استمرّت المحاكمة بضعة أسابيع، وكان يبدو أن السلطات السورية تستغل المحاكمة لإنزال عقوبات شديدة بالمتهمين السوريين، فقد اتضح هذا من خلال الأسئلة التي وُجّهت الى السوريين وخاصة بـ«ماجد شيخ الأرض»، الذي ساعد إيلي كوهين في الدخول الى سوريا يوم ١٠ يناير ١٩٦٢، وفيما يلي مقتطف من شهادته:

رئيس المحكمة: حدّث المحكمة لماذا عدت إلى ألمانيا عام ١٩٤٧؟

ماجد: لأعيش هناك، كل واحد يعرف ان الحياة في ألمانيا ليست كالحياة في سوريا، هناك تكاليف المعيشة أقل.

رئيس المحكمة: أي أن الدول الأجنبية أفضل من دولتك، أنت قذر وحقير، ليست لك جذور في وطنك، ما تربطك به هي العمولة التي تجنيها من العملاء الأجانب وهكذا إذن، الحياة في ألمانيا أفضل من الحياة في سوريا، أليس كذلك يا قذر، لقد سافرت الى ألمانيا وأوروبا مئة مرة وربما ألف مرة، لماذا تسافر كثيراً، لو كنت تملك بنكاً لأعلن إفلاسه، لقد سافرت إلى ألمانيا وكوريا وخدمت في الأمم المتحدة، ولكنك رفضت أن تخدم وطنك.

ماجد: لقد أردت.

رئيس المحكمة: وكيف؟ . . . لقد قلت ان الحياة في الخارج أفضل، والخدمة الوحيدة التي قدّمتها هي أنك جلبت الجواسيس لوطنك، أنت جلبت إيلي كوهين. .

ماجد: أقسم بالله أنني لم أجلبه، لقد كانت صدفة.

رئيس المحكمة: في كل مرة سافرت الى أوروبا اشتريت سيارة جديدة وأحضرت فيها جاسوساً.

ماجد: أقسم بالقرآن الكريم أنني لم أجلب إيلي كوهين.

رئيس المحكمة: لا تقسم بالقرآن، ان الله لا يرضى للخونة أن يلمسوا القرآن لأنهم يلطّخونه.

ماجد: لا، لا، لست خائناً، أقسم بالله أنني لست خائناً.

طفولة في مصر، وهجرة إلى "إسرائيل"

لا يمكن فهم قضية كوهين دون العودة الى خلفية عائلته اليهودية.

ولد إيلي كوهين في الاسكندرية بمصر يوم ٢٦/١٢/١٩٢٤، والده «**شاؤول كوهين**» من مواليد حلب عام ١٩٠٠، هاجر مع أسرته الى مصر عام ١٩٠٧، وتعرّف في القاهرة على «**صوفي الطويل**» التي كانت تصغره بخمس سنوات وانتقلا الى الاسكندرية. كان اليهود في الاسكندرية موحّدين ويعيشون حياة جيدة، وقد طوّروا تراثهم اليهودي وحافظوا على ثقافتهم.

عمل «شاؤول» في خياطة أربطة العنق، ولضرورة العمل التجاري سافر كثيراً إلى أوروبا، وتولّت الوالدة صوفي تربية الأولاد حيث اهتمت بتعليمهم التعاليم الدينية اليهودية. كما كانت تحادثهم بالعربية والفرنسية، أما لهجتهم العربية فقد كانت سورية، وكان إيلي الولد الثاني في الأسرة، أما الأولى فكانت «أوديت». تعلّم إيلي في المدرسة الابتدائية اليهودية «عيتس حايم» وشارك في جوقة الكنيس الكبير «الياهوهنفي» وتتلمذ على يد الحاخام «موشيه قنتورة»، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة «السوربون»

باريس ومحاضر في موضوع تاريخ شعب إسرائيل. كان إيلي طالبا متفوقاً في معهد «الرحبام» وهو يتكلم اللغة العبرية التوراتية ويحفظ التوراة. وبعد أن أنهى الابتدائية درس في ثانوية فرنسية، ثم درس سنة في كلية الهندسة بجامعة «الملك فاروق» في الاسكندرية، وظل محافظاً على التقاليد الدينية اليهودية.

تقول والدته انه تفوّق في جميع المواضيع، أحب كرة القدم والسباحة والرسم والتصوير وكان يحلّل الألغاز وقد ربح عدة جوائز، كما أحب جمع الطوابع. وتقول أخته «سارة»، انه تميّز في طفولته بخاصتين: فهو لم يعرف الخوف، وأحب مساعدة الغير.

في الحرب العالمية الثانية، وعندما كانت جيوش الحلفاء على أبواب الاسكندرية، انتقلت العائلة الى طنطا، وحين كانت الطائرات الألمانية تقصف المدينة والناس في الملاجىء وقف إيلي خارج الملجأ ينظر الى الطائرات. طوال هذه السنوات، عاش اليهود بسلام مع جيرانهم العرب، ولم يعرف اليهود أي معنى للتفرقة ضدهم، وكل ما حصل هو أن وضعهم تزعزع عندما كانت جيوش رومل على أبواب الاسكندرية في أكتوبر ١٩٤٢.

وفي أكتوبر ١٩٤٩، هاجر الى إسرائيل ثلاثة من أخوة كوهين وهم «أوديت»، و«موريس»، و«عزرا». وفي ١٩٥٠ انضمّ اليهم الباقون، باستثناء إيلي الذي بقي في الاسكندرية لمواصلة دراسته، ولكنه لم يتعلم، فمنذ عام ١٩٤٦ ترك مقعد الدراسة وبدأ بالعمل في شركة لاستيراد الشاي التابعة «لميخائيل مزراحي»، وبعد شهرين انتقل الى شركة «اسكندينافيا اكسبورت»، لاستيراد الأخشاب لصاحبها «موريس مزارحي»، وكان راتبه ١٥ جنيهاً مصرياً، وفي عام

١٩٤٨ انتقل ليعمل في محل نثريات لدى الأخوان «كلارك»، وخلال فترة وجيزة أصبح مديراً لأحد هذه الحوانيت في شارع سعد زغلول في الاسكندرية حيث أصبح دخله الشهري ٣٠ جنيهاً.

في هذه الفترة أحبّ إيلي فتاة جميلة تدعى «ريتا»، وهي مسيحيّة، ورغم أنه أحبها كثيراً لكنه لم يتزوجها.

التجسس في مصر

في عام ١٩٥٢ أقامت المخابرات الاسرائيلية بمساعدة «جون وارلينغ» خليتين سرّيتين للتجسس في مصر، الأولى في القاهرة بقيادة الدكتور «موشي مرزوق»، والثانية في الاسكندرية بقيادة «سامي عازار». وكانت حلقة الوصل بينهما مارسيل بنينو.

كان إيلي كوهين على معرفة بعازار ولكنه لم ينضمّ الى الشبكة وقد اقتصر دوره على إيجاد غرفة لاستئجارها باسمه في الاسكندرية ليلتقي فيها مرزوق وعازار وزملاؤهما في الشبكة المذكورة والذين كانوا جميعاً قد تدرّبوا في فلسطين المحتلة، ولما عادوا الى الاسكندرية غيّروا مكان سكنهم، وبعد انكشاف أمر هذه الشبكة استدعي إيلي للتحقيق، ولكن أفرج عنه بعد أربع ساعات[١] وأعدم الدكتور «موشي مرزوق وسامي عازار» في ٣١ يناير ١٩٥٥، وحكم على الباقين بالسجن لفترات مختلفة.

لقد ذهل إيلي كوهين كبقية الشباب الآخرين من جرّاء إعدام

---

(١) ان هذا يدل على ضعف أجهزة مكافحة التجسس العربية. وفقدانها القدرة على اكتشاف شخصية بدأت عملها التجسسي مبكراً، ثم أصبحت، فيما بعد أخطر ما اكتشفته المخابرات العربية. ان ابعاده مع مجموعة أخرى من اليهود إلى إيطاليا، دليل واضح على مساهمة الأنظمة العربية، بشكل أو بآخر، بتشجيع هجرة يهود الدول العربية الى فلسطين المحتلة، وأثر هؤلاء في زيادة القدرة الاسرائيلية، عسكرياً وإداريا وفكريا...

قادة الشبكة المذكورة وقرّر البقاء في مصر لينتقم لموت «عازار»[(١)]، وانتظر حتى يتمّ أي اتصال بينه وبين المخابرات الاسرائيلية، ولكن الخوف شلّ جميع المؤسسات اليهودية، وعلى الرغم من ذلك قام كوهين في صيف ١٩٥٥ بزيارة سرية الى «إسرائيل» حيث أنهى هناك دورة استخبارات سريعة وأقام هناك في فندق تحت إسم مستعار وحظر عليه الاتصال بعائلته. ولكنه رغم ذلك اتصل بهم وتحدث هاتفياً مع أخته أوديت التي هي بدورها حدثت شقيقها موريس، وعندما جاء موريس ليسأل عنه في الفندق قيل له: لا يوجد لدينا شخص بهذا الإسم.

في السنوات التي قضاها في مصر بدّل إيلي كوهين مكان سكنه في الاسكندرية عدة مرات. أما التحوّل الذي طرأ على حياته فكان أثناء حرب سيناء ففي ٣٠ أكتوبر ١٩٥٦ قُرع بابه عند الساعة الرابعة صباحاً وعندما فتح الباب كان أمامه ثلاثة من رجال الأمن المصريين، حيث أمروه بأن يرتدي ثيابه وأن يحمل شهادات إثبات شخصيته وأن يرافقهم الى محطة الشرطة، عندها كان أكثر ما يقلقه أن يكون سرّ زيارته للوطن الفلسطيني المحتل قد انكشف، لكن مخاوفه تبددت لدى وصوله الى المحطة حيث اتضح ان السلطات اعتقلت آلاف اليهود الذين نقلوا الى معسكر بجوار القاهرة، لمراقبتهم واتقاء شرورهم.

---

(١) أنظر عزيزي القارىء كيف ان اليهودي قرر الإنتقام لقادته بالرغم من اعتدائهم وإجرامهم بحق البلد الذي أواهم وأعطاهم كما أعطى بقية أبنائه، وعليه فإن ذلك لا بدّ أن يحثّ كل عربي ومسلم من أجل الدفاع عن القضية الحقّة ـ فلسطين ـ القدس وكل الأراضي العربية المحتلة حتى التحرير الكامل وإن طال الزمن.

النفي إلى إيطاليا

في ٢٦ يناير أفرج عنه وأعيد الى الاسكندرية حيث نُفِي بعدها ضمن سبعمائة يهودي إلى إيطاليا على ظهر الباخرة الإيطالية «سينت ماري» إذ منحته السلطات المصرية تأشيرة خروج ومبلغ ٢٠ جنيهاً وسمحوا له بأن يأخذ بدلة وحقيبة واحدة.

في ٢٩ يناير وصلت الباخرة الى نابولي، وبمساعدة الوكالة اليهودية أقاموا في مأوى «ألبرتو دي فيتوريو» واتصل إيلي بأخيه «موريس» الذي كان متزوجاً ويعمل في مكتب بريد «رمات جان»، وطلب منه أن يرسل له مساعدة مالية إلى إيطاليا. ولكن أعضاء الحركة الصهيونية هناك قالوا له ألاّ يهتم لأن أخاه إيلي سيذهب الى «إسرائيل» بعد فترة قصيرة. وبعد أيام وصل على ظهر الباخرة الإيطالية «فيليبه جرمانه» الى ميناء حيفا، وسُجِّل كقادم جديد، وبعد ساعة كان في بيت أخيه في «رمات جان».

عندما وصل الى «إسرائيل» كان إيلي قد بدا كإنسان غريب، هذا ما قاله أخوه الصغير «ألبرت» والذي أضاف «عندما تركنا مصر كنت في الرابعة ولا أذكر أخي جيداً ولكن الآن عندما أصبحت في الحادية عشرة أشعر أن لي أباً جديداً. كنت أحترمه كثيراً وكان

يساعدني في دراستي، وكثيراً ما حثّني على التعليم لأجل مستقبلي».

كان إيلي متردّداً في تقرير مصير نفسه، فنظراً لكبر سنّه لم يخدم في الجيش فقد اجتاز فترة قصيرة من التدريب وخدم قليلاً في الاحتياط في احدى فرق سلاح الطيران في وظيفته في مكتب تجاري في شارع اللنبي بـ«تل أبيب» وهناك حقّق معه ضابط برتبة رائد حول ماضيه في الاسكندرية أخبره إيلي بكل شيء، عن دراسته واللغات التي يتقنها ونشاطه في حركة «هملوتص هتصعير» ومعرفته «بسامي عازار» وزيارته السرية لاسرائيل عام ١٩٥٥ وعن رغبته في الانتقام من موت «عازار». جمعه الضابط بالمسؤول عنه، والذي عرف نفسه بإسم «موسى» وبعد الحديث معه أُعجب به كثيراً وبكفاءته فوجّهه الى أحد مكاتب الجيش في «تل أبيب» ليعمل في قسم الترجمة عن الصحافة العربية وظل في هذه الوظيفة حتى شهر يونيو ١٩٥٧.

وفي مطلع ١٩٥٨ عمل مساعداً لمدير حسابات في «همشبير همركزي» لكنه لم يحب هذا العمل الا انه أدرك ان لا مناص حيث لم تتوفر بدائل أفضل، وبعد أشهر قليلة استطاع الارتقاء الى منصب أفضل فعيّن مدير حسابات في فرع «همشبير» في «كريات جات»، ورغم ذلك لم يكن راضياً عن عمله، ولذا عاد الى المكتب التجاري في «تل أبيب» وكان قد قرّر البحث عن عمل في الاستخبارات وعندما قدّم طلباً لذلك طُلب إليه أن يكتب عن حياته كما قام باحث نفسي بامتحانه وكانت استنتاجات ذلك الباحث انه «ذكي جداً، لكنه لا يدرك الخطر المحدق به وانه يحب المجازفة ولذا يعمل بأكثر مما يطلَب منه». فعاد اثر هذه النتيجة الى عمله في «همشبير همركزي».

زوجة كوهين

في فبراير ١٩٥٩ تعرّف على «ناديا مجلد» التي تزوجها فيما بعد بواسطة أخيه موريس، كان ذلك يوم ثلاثاء كما تقول ناديا ثم قالت مضيفة «كل الأحداث الهامة في حياتنا كانت أيام الثلاثاء فقد تزوجنا يوم الثلاثاء ٣١/ ٥/ ١٩٥٩، وسافر إيلي أول مرة في مهمة لصالح «الموساد» يوم الثلاثاء ١/ ١٢/ ١٩٦١ وألقي القبض عليه في دمشق يوم الثلاثاء ١٨/ ١/ ١٩٦٥ وأعدم يوم الثلاثاء ١٨/ ٥/ ١٩٦٥».

ولدت زوجة كوهين «ناديا» في بغداد بتاريخ ١٤/ ٩/ ١٩٣٥ لعائلة ثرية عملت في التجارة وقد تخرجت من أحد المستشفيات التبشيرية الفرنسية، ولكن اخوتها درسوا في مدارس يهودية.

في أيار ١٩٤١ عندما اشتعلت ثورة «رشيد عالي الكيلاني» في العراق، أخذت عائلة «ناديا» بالتفكير الجدّي بالهجرة الى فلسطين ولكنها هاجرت فعلاً عام ١٩٥١[١].

---

(١) هذه إحدى الفلتات النادرة التي اعترف المؤلف من خلالها، سهواً، رغم الحذر التاريخي لليهود، بالحقائق. فالدعاية الصهيونية تركز وتحاجج باستمرار بأن اليهود هجروا البلاد العربية هرباً من عنف العرب. ولكن حالة العائلة المذكورة تنفي ذلك ببساطة. فهل يمكن لأسرة واقعة تحت إرهاب =

عندما هاجرت العائلة كانت «ناديا» في السادسة عشرة من عمرها وبعد الخدمة في الجيش عملت في إحدى مؤسسات «فيتسو» في قسم خاص بالأيتام من «ضحايا النازية»[١] وفي خريف ١٩٥٦ تسجلت لدورة تمريض نفساني ولكن حرب سيناء عرقلت برنامجها.

كان لقاؤها بإيلي مستمراً جداً رغم التمايز بينهما فهو متعلم أكثر منها، ولكنها كانت ذكية جداً وحساسة وذات خيال منفتح، أحبت العمل اليدوي وأما إيلي فقد أحب مطالعة الكتب خصوصاً

= وعنف أن تفكر بالهجرة عام ١٩٤١، وتقوم بالهجرة بعد عشر سنوات عام ١٩٥١؟! لقد كان اليهود يعيشون ضمن علاقات طبيعية مع الفئات الأخرى في مختلف الدول العربية أينما وُجدت الجالية اليهودية، ولم يكن يمارس ضدهم أي تمييز أو عنف أو اضطهاد كما تدّعي الصهيونية.

(١) هذه الصورة والتي تحاول الحركة الصهيونية ودولتها المزعومة أن تثيرها في كل محفل ومقام تجاه الرأي العام، انهم هم الشعب المظلوم هم.... وبأن ألمانيا النازية قد ارتكبت فيهم المجازر العظام وأدخلتهم المحارق وهم أحياء وهنا نحن لا ننكر انه لم يقع عمليات قتل ضد اليهود ولكن الذي ننكره هو قصة الأفران والألوف المؤلفة من اليهود الذين أحرقهم النازيون كما يزعمون ويمكن للقارىء الكريم أن يراجع كتاب المؤلف الفرنسي روجيه غارودي ـ الأساطير المؤسسة ـ وهو الذي يحاكم اليوم في فرنسا بتهمة العداء للسَامية وهنا نسأل الديمقراطية الفرنسية ونسأل ثورة فرنسا الحرة وكل رجالاتها مَن يحاكم حكّام الكيان الصهيوني في مجزرة دير ياسين ووادي البقر وصولاً للمجزرة الوحشية في قانا العام ٩٦ والتي ذهب ضحيتها ما يفوق المئة من الأطفال والنساء والشيوخ والتي نقلت صور المجزرة لحظة وقوعها وكالات الأنباء العالمية بالصورة الحيّة، من يحاكم هذه الزمرة المجرمة؛ والذي لم يتورّع رئيس الكيان وقتها «شمعون بيريز» أن يقول نعم نحن الذين قصفنا موقع قوات الطوارىء الدولية مع معرفتنا بوجود لاجئين في داخله..! أين مجلس الأمن؟ أين هيئة الأمم؟ أين الحريات والديمقراطيات التي يدعون إليها...!

كتب التاريخ كما أحبت اللباس البسيط، أما إيلي فأحب المظاهر البرجوازية ولكن كل هذه التمايزات لم تحد من تكرار لقاءاتهما وعليه فبعد ثلاثة أشهر تمّت الخطوبة وبدأت الاستعدادات للاحتفال بالزواج وتزوجها في «تل أبيب» يوم ١٩٥٩/٨/٣١.

كانت أشهرُ زواجهما الأولى ناجحة لقد سكنا في منزل في «بات يام» وعاد إيلي الى عمله في «همشبير همركزي»، وفي مطلع ١٩٦٠ حملت زوجة الجاسوس الإسرائيلي ولم يَلح في الأفق ما قد يعكّر حياتهما ولكن في ربيع ذلك العام، جاء«الملاك» فغيّر حياتهما ومصيرهما ومنذ ذلك اليوم أصبحت زوجة كوهين زوجة لرجلين الأول إيلي كوهين الموظف في «همشبير همركزي»، والثاني حيث تحولت كزوجة «لكامل أمين ثابت» الجاسوس الاسرائيلي في دمشق.

التجنيد في جهاز الاستخبارات

تميّزت الأشهر الأولى من عام ١٩٦٠ بزيادة التوتر في علاقات إسرائيل والجمهورية العربية المتحدة، وقد تحدّثت مصر وسوريا بأن إسرائيل سرطان في قلب الأمة العربية، واتهم الرئيس «جمال عبد الناصر» إسرائيل بتشريد اللاجئين العرب الفلسطينيين، ودعا الى حل القضية الفلسطينية بالقوة ولكنه اشترط تجدد الحرب ضد اسرائيل بالشروط التالية: تحقيق الوحدة العربية، تعزيز قواته العسكرية بواسطة الاتحاد السوفياتي، بعد حرب سيناء في أكتوبر ١٩٥٦ بدأ جمال عبدالناصر الوسائل اللازمة للحرب المقبلة مع إسرائيل.

لم يكتفِ جمال عبدالناصر بالنشاطات السياسية والاعلامية فقد طالب بالانتقال الى المرحلة العملية، ولكن نظراً لمرابطة قوات الامم المتحدة في سيناء منذ ١٩٥٦ فقد كانت حرية العمل المصري محدودة من تلك المنطقة، ولذلك قرر تسخين الحدود السورية الاسرائيلية، ومنذ توقيع اتفاقات الهدنة بين «إسرائيل» والدول العربية ظل الخلاف معقداً بين «إسرائيل» وسوريا حول نوعية السيادة على ثلاث مناطق هامة على طول الحدود الدولية بينهما.

بادر جمال عبدالناصر بعملية عسكرية في المنطقة الجنوبية الأمر الذي أدى في ١/ ٢/ ١٩٦٠ الى عملية عسكرية إسرائيلية ضد قرية «التوافيق». كانت هذه العملية هي الأولى منذ حرب سيناء، فقد هاجمت قوات من فرقة «جولاني» المواقع الرئيسية السورية فهدمت خمسين بيتاً واستولت على كميات من الأسلحة وقتلت عدداً من المدنيين السوريين[١]، وكان اللواء «جمال فيصل» قائداً للجيش الثالث آنذاك وكان على اتصال مع القيادة الرئيسية في القاهرة وأبلغها أن إسرائيل تستعد لعملية اخرى في أية لحظة وبناء على هذه المعلومات قرر جمال عبدالناصر استدعاء بعض قوات الاحتياط وفي ١٨/ ٢ أدخل الى سيناء لواءً مجنزراً.

وفي تلك الليلة كان يبدو ان الحرب سوف تشتعل في أية لحظة وجاء عبدالناصر الى دمشق يوم ١٤/ ٢/ ١٩٦٠.

لاقت الوحدة السورية ـ المصرية، حرباً وتآمراً لا مثيل له من قبل الدوائر الغربية والاسرائيلية وبدأوا يعدّون العدة لإفشالها عن طريق التحرّش بالرئيس جمال عبدالناصر، والتجسس على استعداداته العسكرية ضد العدو الصهيوني. . . وبدأت دوائر الاستخبارات الغربية تثير الشكوك والإشاعات حول الزعيم جمال عبدالناصر والمصريين من عسكريين ومدنيين ممن قَدِموا الى سوريا

---

(١) تميزت كل العمليات العسكرية الاسرائيلية في ذلك الوقت، ضد القرى العربية الحدودية المجاورة، بأنها مورست ضد المدنيين العزّل، حيث كانت هذه القوات تخرج الى قرى منعزلة، ضمن سياسة «العمليات الانتقامية»، فتقتل المدنيين وتنسف البيوت وآبار المياه وكل مقومات الحياة، كما حصل في دير ياسين وقبية وقلقيلية. وقد كان قادة العدو الحاليون أمثال شارون وغيره يقودون بأنفسهم هذه العمليات.

لإقليم الشمال للجمهورية العربية المتحدة. . . ولكن جمال عبدالناصر لم يلتفت لكل ما كان يثار حول أول عمل وحدوي في التاريخ العربي الحديث، وان كان يخشى من نجاح دوائر الاستخبارات العسكرية الغربية من أن تنجح في محاولاتها لشقّ الوحدة، ولكن عبدالناصر ومن معه من رجالات الوحدة حاولوا جاهدين نحو تثبيت الوحدة وتقويتها عن طريق تطوير المعدات العسكرية وتدريب الجيش عليها.

تجنيد كوهين

هذا النشاط العسكري والسياسي، فرض على «إسرائيل» أن تطور جهاز مخابراتها لمتابعة الأحداث والتطورات وبعكس الدول العظمى الكبرى، التي اعتمدت على تطوير أجهزة مخابراتها ببطء، فقد وجدت إسرائيل نفسها أمام تحدي تطوير هذه الأجهزة بسرعة قصوى، وعليه أمر رئيس شعبة المخابرات الجنرال «حاييم هيرتزوج» وبتوجيه من «بن غوريون» بتجنيد جاسوس خاص في دمشق.

أُلقيت المهمة على «دان» قائد الفرقة (١٣١) في شعبة الاستخبارات والتي عملت على تجنيد وتدريب وتشغيل عملاء سريين اسرائيليين في الدول العربية. وقد اختار «دان» إيلي كوهين للقيام بهذه المهمة بعد عدة اختبارات، كما فحص المسؤولون مختلف التفاصيل المتعلقة بحياته حتى عندما اعتُقل في مصر كما سئل عدة مرات فيما إذا كانت السلطات المصرية قد نقلت بصمات أصابعه أو التقطت له صوراً وبالنتيجة اقتنع الجميع أن إيلي تطوع لهذه المهمة غير مدفوع باعتبارات مادية أو بحب المجازفة كما أنه لا يعاني من مشاكل عائلية، بل اتضح انه مخلص لزوجته وهادىء

وليس سريع التوتر.

أما الاختبارات النفسانية فقد أثارت بعضاً من علامات الاستفهام حيث أشارت الاختبارات الأولى انه - أي كوهين - لا يدرك الخطر قبل وقوعه، وعندما اختبره عالمان نفسانيان الأول من مواليد «ستراسبورج» ويتكلم الفرنسية والثاني من مواليد «إسرائيل» يتكلم العربية، اتفق الإثنان بأنه ذكي وبوسعه التمييز بين الأمور الجوهرية والتافهة، وانه ذو ذاكرة قوية وحسن الأخلاق ويكتم الأسرار، وأضاف أحدهما انه رغم مظهر كوهين المتواضع، الا انه يبالغ كثيراً في الاهتمام بنفسه ويقدر طاقاته بأكثر من حقيقتها. أما الثاني، فقال انه بالرغم من هدوئه الخارجي، الا «انه متوتر داخلياً، وفاشل في تقدير أو توقع حجم الخطر الذي قد يواجهه ومستعد أحياناً للمجازفة بأكثر مما يُطلب منه».

الجاسوس والذئب

رغم كل ذلك، كانت نتائج الفحص ان إيلي ملائم لهذه المهمة، فالجاسوس يجب أن يكون كالذئب في البلد التي كُلِّف بالعمل فيها. عليه أن يكون مطلعاً على الأوضاع في مجتمع تلك البلاد، وأن يكسب صداقات هناك وأن يتدرب على أيدي مدربين أكفاء، وان لا يعرف غيره من الجواسيس ولا يعرف أين يعملون، لأن العميل إذا ما ألقي القبض عليه، فلا بد أن يتعرض لتعذيب قاس ولذلك لا مجال للمجازفة.

فالجاسوس الاسرائيلي يعتبر أنه يقاتل بأساليب مختلفة عن أساليب سائر الجنود العاديين. وأما الرجل الذي بلور هذه الأساليب، فهو «سلمان» حيث طور كفاءات الجواسيس بناء على تجربته الشخصية، حيث كان من تعليماته: كن متواضعاً ولا تحاول البروز، هذه القاعدة تعلمها في الحرب العالمية الثانية عندما أرسل مع بعض من رجال «البالماخ» الى دورة كوماندوس في مصر[1]،

(١) لقد قدّم الانجليز للحركة الصهيونية خلاصة تجاربهم الاستعمارية الاستيطانية والتجسسية في أرجاء العالم. وقد كانت بريطانيا تعدّ بهذا حصناً امبريالياً متقدماً في المنطقة، وليس كما كانت تتظاهر بالعداء ضد الحركات العسكرية التي شكلها اليهود في فلسطين تحت سمعها وبصرها ودعمها أيضاً. =

حيث كان أفراد الدورة من دول مختلفة والهدف كان تعلم أساليب ضرب القوات النازية في مواضعها الخلفية في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من التدريب القاسي تعود «سلمان» أن يجلس في نادي الضباط في نهاية اليوم ويقرأ كتاباً. وفي إحدى الأمسيات، تقدم منه قائد الدورة وسأله: هل صحيح انك يهودي؟ أجاب «سلمان»: نعم، كيف عرفت؟ فقال الكولونيل البريطاني: اليهودي فقط هو الذي يمكن أن يجلس في النادي ويقرأ كتاباً بينما يشرب زملاؤه البيرة، ان كنت لا تحب البروز فاغلق الكتاب وانضم الى زملائك، هذا ليس أمراً وانما نصيحة، وحاول أن لا تسكر[1]؟

وقد تطابقت نصائح الكولونيل الانجليزي مع نصائح «إيجال آلون»[2] قائد «البالماخ» في تلك الفترة، حيث قال «آلون» لجنود

= كما ان الحركة الصهيونية كانت تعتبر نفسها تخوض حرب تحرر وطنية في فلسطين ضد الاستعمار البريطاني!!

(١) هناك غمز من الكولونيل البريطاني ضد نزعة حب الظهور والتميّز لدى اليهود، ورغم أن الكولونيل لم يعترض على هذه النزعة، الا أنه أوضح للضابط اليهودي ان هذا المسلك لا يليق بمن تُوكل إليه مهام وأعمال العميل السري والجاسوس.

(٢) ايجال آلون: قائد تنظيم «البالماخ»، وهو تنظيم إرهابي صهيوني متطرّف كان يقوم بالعمليات ضد العرب في فلسطين قبل العام ١٩٤٨، وشكل بعدها مع تنظيمات أخرى ما يعرف اليوم باسم «جيش الدفاع الاسرائيلي». وقد أشرف آلون على العمليات التخريبية ضد اليهود وأملاكهم في العراق، بهدف تخويفهم ودفعهم الى الهجرة الى فلسطين. وقد ورد هذا في أكثر من مصدر صهيوني منها مذكرات آلون نفسه وموشي شاريت ودافيد بن غوريون.
وآلون الذي أصبح وزيراً لخارجية «إسرائيل»، هو واضع مخطط «حزام آلون» بشأن الضفة الغربية المحتلة، وهو حزام يسيطر على معظم أراضي الضفة الغربية ويضمها الى «إسرائيل»، ويتضمن طرقا رئيسية تشطرها الى عدة أقسام، وإقامة تجمّعات استيطانية يهودية تفكك ترابط البنية السكانية العربية =

«البالماخ» الذين أرسلوا للإشتراك في الدورة: «أود التطرق الى موضوع حساس وهو النساء. انكم بالغون وأنا أثق بكم، كما أنني لا أستطيع أن أفرض عليكم بأن تترهبنوا، ولكنني في الوقت نفسه لا أعتقد أنه يجوز لكم أن تطلقوا العنان لغرائزكم، لأنكم عندها قد تسقطون في حبائل النساء فتتعرضون للمخاطر».

= في الضفة الغربية. وتتمسك الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة على اختلافها بهذا المخطط الهام في الاستراتيجية الصهيونية.

شخصية العميل

جُنّد إيلي كوهين في جهاز المخابرات بتاريخ ٢٤/ ٥/ ١٩٦٠، وأُبلغ في ٦/١٠ أنه اجتاز جميع الفحوص. لقد توفّر في كوهين الشرطان الأساسيان في شخصية عميل وهما المظهر الخارجي ومعرفة اللغة العربية. كان يجب على كوهين أن يتقن ليس فقط نسيان هويته اليهودية، بل وماضيه المصري كذلك، وعليه أُعطي تمارين لشحذ الذاكرة وقد تمت هذه في غرفة صغيرة في شارع «اللنبي» بـ«تل أبيب»، إذ قام شاب يدعى «يتسحاق»، كان عميلاً في احدى الدول العربية، بوضع مجموعة من الأدوات على الطاولة، قلم ومحبرة، ومفتاح وغيرها، وطلب من إيلي أن يسميها عن ظهر قلب، والتمرين الثاني أن يذكر ترتيبها على الطاولة. وبعدها قدمت له صور وطلب أن يصفها، واستمر هذا التمرين بضعة أيام خلالها أعجب «سلمان» بذكاء إيلي وحدة ذاكرته.

ثم كانت هناك تمارين أخرى على الملاحقة، والتخلص من المآزق، فقد سار معه «يتسحاق» في الشارع وقال له: «كن يقظاً واكتشف من الذي يلاحقك، قف إلى جانب كشك وتظاهر بأنك تقرأ صحيفة وانظر الى الناس الذين يمرون بمحاذاتك». كان مدربوه

يصورون كل هذه الخطوات، وفي نهاية اليوم كان يجلس «يتسحاق» مع إيلي لمراجعة الصور لمعرفة مدى نجاحه في اكتشاف الذين كانوا يُتابعونه.

لقد تدرّب إيلي جيداً على استخدام آلة التصوير، وفي تلك الفترة كان يختفي لبضعة أيام. وكان يعلّل ذلك بأن عليه ترتيب بعض الأمور المتعلّقة بعمله الجديد. وذات يوم أَحضرت له فتاة باسم «مارسيل كونين» جواز سفر فرنسياً باسم شخص يهودي من أصل مصري هاجر الى افريقيا عام ١٩٤٨. وأُرسل عندها إيلي الى فندق «الملك داود» في القدس، وهناك كان عليه أن يقدّم نفسه كسائح يهودي بهذا الاسم وهذا الجواز، جاء ليختبر امكانية الهجرة الى إسرائيل والإقامة فيها، وبالطبع، حُظر عليه التحدث بالعبرية، وكان الهدف من هذا التمرين اختبار قدرة كوهين على تقمّص شخصيته الجديدة.

تجاوز إيلي الامتحانات في القدس بنجاح تام، وتم الإجماع انه اضافة الى ذكائه فهو سريع الاستجابة لما يطرأ حوله، كما ان تنفيذه للتمارين كان دقيقاً ورشيقاً، قال له «سلمان» انه لاحقا سيُعطى شهادة مهاجر عربي لاختبار قدرته على تقمص شخصية مواطن عربي.

ومع حلول شهر أيلول كانت «ناديا» زوجة كوهين في شهرها التاسع من الحمل، وعندها قرر «سلمان» توقيف تدريبات إيلي ومنحه إجازة، وفي ٩/ ٩/ ١٩٦٠، ولدت زوجته طفلة أسموها «صوفيا». وبهذا أصبح إيلي أباً وعندها سيطرت عليه حالة من التردد وأخذ يتساءل ان كان قد تصرف بحكمة عندما ترك عمله في «همشبير

همركزي» وانخرط في «المغامرة» الجديدة التي لا يعرف نهايتها، وقرّر أن يُشرك أخاه «أفرايم» في حيرته. فمنذ أن عاد من مصر عام ١٩٥٧، طوّر إيلي علاقات خاصة مع أخيه «افرايم» الذي يصغره بخمس عشرة سنة حتى أصبحت العلاقات بينهما حميمة جداً. وقد أقنع إيلي «افرايم» بترك كسيبوتس «رفيقيم» والانضمام الى العائلة في «بات يام».

لقد تشاور إيلي مع أخيه حول عمله الجديد، وأصغى الى كلامه ولكنه لم يعقب عليه لأنه أدرك أن إيلي قبل بالعمل الجديد ولم يحاول التدخل في شؤونه.

«كامل أمين ثابت»

بعد الأعياد سلّم «سلمان» إيلي بطاقة هوية باسم «كامل أمين ثابت» ومبلغ ٨٠ ليرة لتغطية النفقات. وفيما بعد قال إيلي أثناء المحاكمة انه كان قد تشاور مع «سلمان» في اختيار الاسم، وكان سلمان قد طلب أن يذكر في الهوية أن إيلي من مواليد العراق أو سوريا، وحينما سأله إيلي عن ذلك، قال سلمان لأن تنظيم السكان في مصر منظّم وليس كما هو في العراق. وبما أن إيلي لا يعرف شيئا عن العراق، فقد تقرر تسجيله من مواليد سوريا. بعدها بدأ يعلم إيلي مبادىء عن الاسلام والعادات العربية، وحفظ آيات مختارة من القرآن وفرائض الصلاة، أي كل ما يمكن أن يعرفه المسلم العادي عن دينه وتقاليده، وزار إيلي جامع «الجزار» في عكا ومساجد «الناصرة»، واستمع الى خطيب الجمعة واهتم ليعرف أكثر عن المذهب الشافعي لكي ينتحل الانتماء إليه.

وكما قالت زوجته، فإنها قد لاحظت تغيراً في سلوك إيلي، حيث أخذ يميل للانعزال بشكل متزايد، وأخذ يصغي للإذاعات العربية.

أما المرحلة اللاحقة في تدريب إيلي فقد تمت باتجاهين

متوازيين، فمن جهة بدأ يتعوّد على شخصيته الجديدة «شخصية كامل أمين ثابت» ومن جهة أخرى، تعلم قيادة السيارة وقراءة الخرائط، وتدرّب على استعمال الأسلحة والمتفجرات والحبر السرّي.

وطبقاً لشخصيته الجديدة، فهو «كامل أمين ثابت» المولود في بيروت في ٦ يناير ١٩٣٦، لعائلة سورية اسم والده «أمين ثابت» وأمه «سعدية ابراهيم»، كانت له أخت تكبره. وفي عام ١٩٣٣ هاجرت العائلة الى الاسكندرية، وتوفيت الأخت عام ١٩٣٤، وفي عام ١٩٤٦ هاجر عمه الى الأرجنتين والذي شجع أخاه على الهجرة الى «بيونس آيرس»، في البداية رفض، ولكنه عاد ليقبل بذلك عام ١٩٤٧، فسافر مع زوجته وابنه إلى إيطاليا، وفي عام ١٩٤٨ هاجرت العائلة الى الأرجنتين. بدأ الأخوان بالتعاون مع تاجر أرجنتيني ولكن الشراكة لم تنجح فأعلنا إفلاسهما.

وفي عام ١٩٥٦، توفي الأب، أمين ثابت، وتوفيت بعده الأم، وبقي كامل وحيداً حيث انتقل للعيش في بيت عمه الذي ساعده في البداية في عمله التجاري، ، ولأنه يجيد اللغة الفرنسية، فقد عين موظفاً في وكالة السياحة «مراوى» وبعد أشهر قليلة انتقل العم الى البرازيل، وأخذ كاملاً معه، ولما أصبح العم ثرياً عاد إلى بيروت وأورث أمواله وممتلكاته الى ابن أخيه. آثر كامل البقاء في «بيونس آيرس».

في أواخر يناير ١٩٦١، كان «كامل أمين ثابت» معدّاً للقيام بمهمّته، التقى به «دان» في الوحدة (١٣١) وأكد على أهمية تفاصيل شخصيته الجديدة وقال له: «لقد قمنا بواجبنا، وأعددناك كما أعددنا جواسيس عديدين من قبلك. والآن كل شيء مُلقى على عاتقك،

سوف نفتح عيوننا لرعايتك، وسوف نخفّ لنجدتك عند الضرورة»، والشيء نفسه بالنسبة لسلمان الذي قال له كلاماً مشابهاً، وأكد ثقته بنجاح إيلي في مهمته. ومع ذلك أكد على المخاطر الكامنة في هذا العمل، وسأله: ألا تخشى هذه المهمة؟ فقال إيلي لست أفضل من الآخرين.

حصل إيلي على إجازة قبل سفره الى الأرجنتين، وكان قد حدّث ناديا أنه مسافر الى أوروبا لستة أشهر وأنه واثق من أن سفره هو لمرة واحدة فقط.

سافر إيلي في ٣/ ٢/ ١٩٦١ على متن طائرة «العال» الاسرائيلية الى زيوريخ، وكان يحمل ٥٠٠ دولار، وحسب تعليمات «دان» كان عليه أن يسافر من المطار الى المدينة بالباص، حيث ينتظره هناك رجل طويل القامة أشيب الشعر وينتحل اسم «زيلنجر» وقد زُوّد بصورته لكي يتعرف عليه.

بقي إيلي في زيوريخ لمدة يومين، حيث أخذ منه «زيلنجر» جواز سفره الإسرائيلي وسلّمه وثيقة سفر عراقية بإسم كامل أمين ثابت. ولما لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين العراق والأرجنتين فقد اشترى له تذكرة الى سنتياغو في تشيلي مع استراحة قصيرة في بيونس آيرس وبيّن له كيف أن السلطات الأرجنتينية لا تسجل في مطار بيونس آيرس أسماء المسافرين في الاستراحة، ولذلك فعندما يصل عليه أن يستأجر سيارة تاكسي من مطار «ازبيزة» وفي اليوم التالي ٧ فبراير عليه الوصول الى مقهى «لاباز» في جادة كوريايثس وسيلتقي عند الساعة الحادية عشرة صباحاً برجل اسمه «ابراهام»، وهو الذي سيدبر أمر إقامته في الأرجنتين.

الملابس الفاخرة ضرورية

في ٦ فبراير سافر إيلي قبل منتصف الليل، وفي اليوم التالي كان في مقهى «لاباز» وبعد أن جلس تقدّم منه رجل طويل القامة، أشيب، وسأله ان كان يرغب في كأس من البيرة. فقال نعم، بدءا حديثهما باللغة العبرية. قال له «ابراهام»: «أول ما يجب أن تفعله هو أن تغادر الفندق، وهذا عنوان بيت لكي تستأجره، وسأرتّب أنا دفع الأجرة بشكل دائم. بعد ذلك سأعطيك عنواناً لمعلّم اللغة الاسبانية حيث يجب أن تتعلم الاسبانية بلهجة مناسبة. وان رغبت بأن تظهر مثل أهالي بيونس آيرس فعليك أن تلبس مثلهم. ولكن كعربي ثري وينتظر تركة فيجب أن تشتري ملابسك من أفخر حوانيت الملابس في شارع فلوريدا أو سانت في، القريب من الميناء».

اتفق الإثنان على الإلتقاء في اليوم التالي، في نفس المكان والزمان، وذهب بعدها إيلي الى شارع لابوكا واستأجر من السيدة «رود ريفين» غرفة في بيتها لمدة ثلاثة أشهر. تحدّث الإثنان بالفرنسية، سجّل عنوانه ورقم هاتفه الجديدين وعاد الى الفندق لإحضار أمتعته.

أعطى عنوانه في اليوم التالي «لابراهام» وأخذ منه عنوان معلّم

اللغة الاسبانية، وأخذ بالتعرّف على المدينة وأهلها، كما بدأت لغته الاسبانية بالتحسن، وفي مطلع شهر مايو احضر له «ابراهام» بطاقة هوية جديدة باسم «كامل أمين ثابت» ووعده بأن يحضر له جواز سفر أرجنتينياً خلال شهر، وقد أخذه بالفعل الى مركز الشرطة في المدينة وهناك عبّأ النماذج المطلوبة لاستصدار جواز سفر والذي كان بعد شهر بحوزته.

متبرّعٌ كريم للفلسطينيين

في هذا الوقت بدأت المرحلة الأهم في بناء شخصية كامل أمين ثابت، فقد ترك غرفته في بيت السيدة «رود ريفين»، وانتقل الى غرفة في بيت السيدة «كرمل». في شارع طاكوراي، ١٤٨٥، ورقم هاتف ٢٩/٦٥٤٩، وبناء على تعليمات «ابراهام» أخذ يختلط مع جالية الـ(تركو) في المدينة، وهم السوريون واللبنانيون، كما أسماهم الأرجنتينيون، وفتح حساباً في بنك محلي يملكه عرب ورصد فيه مبلغاً كبيراً من المال، ولكي يكتمل مظهره كتاجر عربي غني اشترى سيارة أميركية فاخرة من نوع «فورد» وصار يتردد على المطاعم الفاخرة والنوادي العربية. كما تبرع لمؤسسات خيرية عربية واشترك في أمسيات عن القضية الفلسطينية، وخلال فترة قصيرة صار معروفاً كعربي وطني جداً وكمتبرّع كريم للفلسطينيين.

لم تكن مصادفة ان اختار كل من «دان» و«سلمان» مدينة بيونس أيرس كمحطة انتقال أساسية لبناء شخصية «كامل أمين ثابت» قبل وصوله الى دمشق. فقد بلغ عدد أبناء الجالية العربية في هذه المدينة حوالي نصف مليون معظمهم من السوريين واللبنانيين وعدد قليل من الفلسطينيين.

وانخرط «كامل» جيداً في حياة الجالية العربية، وتعرّف عليها وعلى شخصيات من جميع فئاتها بينهم تجار ومثقفون وأدباء وصحافيون وأخذ يطالع الصحف العربية الصادرة هناك ويشارك في نقاشات حول قضايا الساعة والأمور السياسية والثقافية وغيرها. وكان يقدّم «لأبراهام» تقارير متواصلة عن لقاءاته ومحادثاته.

اللقاء مع الحافظ

في أواخر يونيو ١٩٦١ عيّن أمين الحافظ ملحقاً عسكرياً في الأرجنتين. وفي مطلع يوليو نظم السفير السوري حفل استقبال للملحق الجديد. دعي اليه «كامل أمين ثابت» بواسطة أحد معارفه في بيونس آيرس وهو «عبداللطيف الخشن» صاحب جريدة «العالم العربي» التي تأسست في الأرجنتين عام ١٩٣٤.

كان هذا حدثاً هاماً في حياة الجالية العربية في بيونس آيرس، وقد حضر الاحتفال دبلوماسيون عرب وقادة الجيش الأرجنتيني. أحسّ «كامل أمين ثابت» وكأنه سمكة في بحر وسط هذا الحشد من المدعويين، ولكنه استغل الفرصة للتعرّف على المدعوّين، وقد قدّمه «الخشن» الى الملحق العسكري السوري الجديد بقوله: «انه وطني سوري حقيقي يريد العودة الى دمشق على الرغم من أنني نصحته بالتروّي». فردّ أمين الحافظ وهو يصافحه «لا تصغ إليه، تصرف وفقاً لرغباتك، وعد الى دمشق، ان الدولة بحاجة إلى وطنيِّين مثلك».

في منتصف أغسطس قرر «دان وسلمان» ان لا يتأخر إيلي في الذهاب الى سوريا، كان الطقس ماطراً في بيونس آيرس، واستطاع

«كامل» الحصول على تأشيرة دخول الى مصر ولبنان لمدة ستة أشهر، وقد طلب منه المسؤولون عنه بأن لا يطلب تأشيرة دخول الى دمشق من الأرجنتين. وهكذا تمكنوا من اجتناب فحص تاريخ حياته، وقيل له انه بالامكان الدخول الى سوريا من نقطة الحدود مع لبنان. أخذ «كامل» بعض رسائل التوصية من «الخشن» الى أصدقائه في دمشق، وتبيّن فيما بعد ان هذه الرسائل كانت هامة جداً، احداها كانت مُعنوَنة الى كامل الخشن ابن عبداللطيف الذي سكن في دمشق، وفيها طلب الأب من الابن أن يساعد «كامل» وأن يرتّب له لقاء مع «جورج سيف»، وهو شاعر وصحافي سوري عاش في بيونس آيرس وعاد الى دمشق. وكان قد اشتغل في صحيفة «الخشن» وعند عودته الى دمشق بدأ بالعمل في القسم الاسباني في الاذاعة السورية. وأما الرسالة الثانية فكانت معنونة الى موظف في بنك بيروت. طلب فيها الخشن من صديقه ان يساعد «كامل» في ترتيب شؤونه وبشكل يحول دون تمكين تأميم الدولة لأمواله الكثيرة، وأما الرسالة الثالثة فكانت موجهة الى «نجيب حرب» والرابعة الى ابن عم «الخشن» في الاسكندرية.

الذهاب الى سوريا

في ٨/٢٤ ودّع «كامل أمين ثابت» أصدقاءه في بيونس آيرس حيث أقام لهم حفل عشاء في مطعم «كبانا» وكان «الخشن» جالسا على رأس الطاولة حيث ألقى كلمة أثنى فيها على مواقف «كامل أمين ثابت» الوطنية وعلى إخلاصه للقضية العربية وقراره النبيل في العودة الى سوريا.

وفي اليوم الثاني ذهب «كامل» لوداع الملحق العسكري السوري. كان «أمين الحافظ» هذه المرة لطيفا وصريحا أكثر من اللقاء السابق. وبعد أن استمع من «كامل» عن نيته في التجوّل في البلدان العربية وأمله في المساهمة في دعم الاقتصاد السوري، قال له أمين الحافظ: «سافر، ورافقتك السلامة». آسف انني لا أستطيع إعطاءك توصيات، فإن أصدقائي في دمشق لا يمكنهم مساعدتك، ولكن الأمور في سوريا تتطور بسرعة، من يدري فربّما نلتقي هناك قريبا. وسيسرني رؤيتك في دمشق».

باع «كامل أمين ثابت» سيارة الفورد، وأغلق حسابه في البنك، وفي ٨/٢٧ التقى للمرة الأخيرة عند الحادية عشرة صباحا مع «ابراهام» في مقهى «لاباز» في جادة كوريايثتس في بيونس آيرس. لم

يخفِ «ابراهام» انفعاله فقد كان معجباً بأسلوب «كامل» وقدرته على الوصول الى مراكز القوى العربية، كما عبّر عن تقديره هذا في التقرير الذي أرسله الى «دان».

أخذ ابراهام من «إيلي» رسالة أخيرة الى زوجته، حيث قال لابراهام: «يجب أن تصل الرسالة الى «إسرائيل» قبل عودتي اليها، وقد جاء في تلك الرسالة «بعد بضعة أيام سوف نلتقي وسأضمّك الى صدري، وسوف نحتفل معا بعيد ميلاد صوفيا الأول».

بناء على تعليمات «ابراهام»، اشترى «إيلي كوهين» تذكرة سفر الى زيوريخ، وبعد تنظيم هذا الأمر ذهب إيلي ليؤدّي واجبا عائليا، حيث كان خاله «أهرون طويل» يعيش في بيونس آيرس، وقد حصل على عنوانه بواسطة زوجته، فقرر زيارته في حانوته حيث تسكن عائلات يهودية متعددة، لم يكن وضع «آهرون» الاقتصادي جيدا، نظر اليه كوهين من بعيد ولم يعرّفه بنفسه، وعند عودته سيقول لأمه بأنه قابل أخاها وأنه بخير.

في ٨/٢٨ سافر إيلي كوهين الى زيوريخ ومنها الى ميونيخ، ونزل في فندق وسط المدينة حيث كان «زيلنجر» بانتظاره، فأخذ منه جواز سفره الأرجنتيني وأعاد إليه الإسرائيلي، كما أخذ منه التوصيات التي أحضرها معه من بيونس آيرس لينقلها الى «إسرائيل» عبر قنوات أخرى.

أمضى يومين في ميونيخ، وفي ٨/٣٠ طار إلى «إسرائيل» على متن طائرة (العال) وكان «جدعون» بانتظاره في مطار «اللد» حيث أخرجه من المطار دون المرور بنقطة التفتيش والجمارك. كان يحمل

لعبة كبيرة اشتراها لابنته صوفيا، وبعض الهدايا التي اشتراها من زيوريخ لزوجته «ناديا». ذهب مباشرة الى منزل والديّ زوجته في «رمات جان»، حيث كانت في انتظاره مع ابنتهما. . . وقد لاحظت زوجته انه يبدو سعيداً جداً بشكل لم تره من قبل بمثل هذه السعادة ولكن عندما سألته عن طبيعة عمله تغيّرت سحنته وهنا دخلها الشك حول طبيعة عمله، ومن حينها لم تستطع طرد الخوف والقلق من قلبها كما قالت.

الانفصال بين مصر وسوريا

حظي «إيلي كوهين» باستقبال وحفاوة لدى «دان وسلمان» حيث كان اتقانه لدوره كمهاجر عربي عائد الى «أرض الوطن» يفوق كل تصوّر. كما ان تعرفه على أمين الحافظ والتوصيات التي يحملها سوف تساعده كثيراً في مهمته في العاصمة السورية. ولكن الطريق الى دمشق ما زال طويلاً، فقبل ذهابه الى سوريا كان عليه أن يواصل تدريباته.

منحه «سلمان» إجازة لمدة شهر، وسيارة تابعة لجهاز الاستخبارات، ولكن في ٢٨/ ٩ وصل «سلمان» الى بيته وطلب منه العودة الى العمل بعد ثلاثة أيام. ففي ذلك اليوم وقع الانفصال وانتهت وحدة مصر وسوريا، الأمر الذي غير ميزان القوى في العالم العربي.

وهكذا في مطلع أكتوبر ١٩٦١، بدأ إيلي استعداداته للسفر الى دمشق، حيث أجرى تدريبات مكثّفة، وحتى في أيام السبت كان يبلغ عن مكان تواجده. وقد تدرّب على استخدام «المورِيس»، وكان مدربه يدعى «يهودا» وقد أمضى الاثنان ساعات طويلة في غرفة مستأجرة في شارع «اللنبي» الى أن أتقن إيلي استعمال الجهاز. ثم

قام بجولة في غور الأردن والحولة. وزار المستوطنات وتعلم المصطلحات العسكرية السورية، كما قرأ مصادر مكتوبة عن سوريا، اقتصادها، ونظامها السياسي والأقليات فيها. وقد حظر عليه زيادة كنس يهودية أو الاتصال بأي يهودي هناك. ولكي يتقن اللهجة السورية زاد الاصغاء لإذاعة دمشق، ومن خلالها أيضاً راقب التغيّرات في الجيش والحكومة السورية. ووفق ادعاءات كوهين التي صرح فيها أثناء محاكمته قال ان المعلومات المتوفرة لدى الاستخبارات الاسرائيلية عن سوريا كانت كثيرة وعندما قرأها واطلع عليها قبل سفره لدمشق سأل رؤساءه عن مدى الحاجة اليه إذن؟؟ فالمعلومات كثيرة وربما تكون دقيقة وتساءل عما إذا كان هناك جواسيس آخرون يعملون في دمشق، يرسلون المعلومات. . . ولكن «دان» أجابه على هذه الأسئلة، بأن الصحافة العربية وبعض الجواسيس الاسرائيليين والأساليب التكنولوجية الحديثة هي مصادر المعلومات. وقال له: من حقك أن تسأل ما هي الحاجة اليك، ولماذا نرسل جاسوساً الى دمشق، نبعده عن أسرته ونعرّض حياته للخطر، ماذا نتوقع منك، لا شيء تقريباً.

ذهل إيلي لسماع هذه الإجابة ولكن «دان» أضاف قائلاً: نحن بحاجة اليك بالأساس من أجل «الإحساس بالمكان» فرغم وفرة المعلومات لدينا والوسائل المتطورة فلا بديل هناك عن ما يحسه الإنسان في مكان تواجده. أنت الشخص الذي سيجسّ النبض في سوريا وسيقرع لنا ناقوس الخطر في حالة الطوارىء. ان الانذار حيوي لدرجة ان كل أجهزة الاستخبارات في العالم بما فيها الدول العظمى تحاول تشغيل عملاء في حالة الخطر تعمل كل ما في وسعها

لانقاذهم، واذا كان هذا مقبولاً في العالم فكم بالحري عندنا[1]؟

قال «دان» مبتسماً: في المستقبل القريب ستشرب العرق الزحلاوي، والنبيذ المصنوع من عنب «لبنان». ثم واصل توصيته لإيلي قائلاً بأن على الجاسوس أن لا يكتفي بالانذار فقط، بل التدريب على عمليات التفجير أيضاً.

عاد كوهين الى البيت حيث أغضب زوجته حين قال لها انه سيسافر قريباً لمدة ٣ أشهر، ففي المرة الماضية وعدها بأن يعود بعد ثلاثة أشهر، ولكنه عاد بعد سبعة.

في الأسابيع التي سبقت السفر واصل إيلي تدريباته، وكان «سلمان» قد أوعز اليه بأن يرسل من أوروبا صوراً ملونة الى أصدقائه العرب في بيونس آيرس بمن فيهم الكولونيل «أمين الحافظ». و«كسائح» كان مفضلاً أن يسافر بالباخرة، من إيطاليا الى بيروت ومن هناك بسيارة «تاكسي» الى دمشق. وسيحصل على تأشيرة الدخول من نقطة الحدود، وعند وصوله الى دمشق يقدم الرسالة التي يحملها الى «كامل الخشن» ابن عبداللطيف الخشن رئيس تحرير جريدة «العالم العربي» أما «جورج سيف» فقد نصحه «سلمان» بأن لا يتوجّه إليه شخصياً، ، ومن المفضّل أن يبحث عنه «سيف» بنفسه، وأما بقية الرسائل المعنونة الى بيروت والاسكندرية فالأفضل أن يرسلها بواسطة البريد، كما أمره أن لا ينزل على شاطىء الإسكندرية عند وصول الباخرة هناك كي لا يلتقي بالذين يعرفهم في طفولته. وأما أثناء وجوده في دمشق فعليه أن يبحث عن شقّة قريبة من مكتب قيادة

---

(١) يوضح هذا كيفية تعاطي المخابرات الاسرائيلية مع عمليات التجسس برصد المعلومات من أفواه حامليها.

الجيش العامة أو وزارة الخارجية، حيث يسهل عليه السكن في هذه المنطقة مراقبة ما يجري فيها، وبالتالي يرسل تحذيراته الى إسرائيل بسرعة إذا ما كانت هناك نية سورية بإشعال حرب مفاجئة. وشرح له «سلمان» بأن الحركة حول مكاتب الخارجية والجيش مؤشر على وجود عمل من عدمه. فمثلاً بقيت الأنوار مشتعلة في الغرف في مختلف الطوابق وطوال الليل، أو إذا زاد عدد السيارات الداخلة والخارجة هناك عن المألوف أو إذا كانت هناك تحركات للجيش في الشوارع، كل هذه علامات ومؤشرات على نشاط غير عادي. كما أبلغه «سلمان» بأنه بعد أن يجد غرفة للسكن ويتعرف على الناس ويشعر بالأمان، فان بوسعه البدء بالبث اللاسلكي الى «إسرائيل». وفي هذه الأثناء تدرب إيلي على استعمال الوسائل السريّة بأنواعها، بما في ذلك الإشارات المتفق عليها، وكيفية استعمال الحبر السري، وقيل له بأن يرسل برقياته باللغة الفرنسية، وأعطي له رقم مكوّن من ثلاثة أرقام وأمر أن يزيل آثار البرقية اثر إرسالها.

موعد السفر

مع انتهاء سبتمبر كان إيلي مستعداً للسفر، وقد حظر عليه مرافقة زوجته الى المطار لوداعه هناك. حيث ذهب الى المطار برفقة «جدعون» وهناك تجاوز نقاط التفتيش وأعطاه «سلمان» ٥٠٠ دولار وفي الساعة الثامنة والنصف أقلعت الطائرة في طريقها الى زيوريخ. ومن هناك واصل سفره الى ميونيخ لمقابلة «زيلنجر» الذي كان بانتظاره في المطار، حيث ذهب الاثنان الى فندق في مركز المدينة. قدّم إيلي جواز سفره الإسرائيلي الى «زيلنجر» وتسلم منه جواز السفر الأرجنتيني. كما أعطاه «زيلنجر» علبة سجائر والتي كانت تحتوي على جهاز «الموريس»، إضافة الى علبتي صابون «ياردلي» واللتين هما مواد متفجرة.

أمضى إيلي بضعة أيام في ميونيخ حيث قام بجولة في شوارعها للتعرف على المدينة وأماكنها الهامة. ثم اشترى تذكرة سفر من شركة أليطاليا للإبحار على متن الباخرة «استوريا». وفي الموعد المحدد ١/١/١٩٦٢ من ميناء «جنوه» الى بيروت مع محطة استراحة قصيرة في الاسكندرية، كما فتح حساباً في أحد بنوك ميونيخ.

صاحب المزرعة

سافر بالقطار يوم ٢/ ١/ ١٩٦٢ من زيوريخ الى جنوه وكان يحمل رسائل التوصيات الى بعض الشخصيات في دمشق وجهاز «الموريس» الصغير وآلة كاتبة وبعض الكتب التي أخفى في صفحاتها إشارة السر وآلة حلاقة كهربائية. وفي يوم السبت ٣/ ٢/ ١٩٦٢، أبحرت «استوريا» من ميناء جنوه الى نابولي حيث رست هناك لليلة واحدة. وهناك قام إيلي بجولة في نابولي برفقة بعض الركاب المصريين وعاد الى الباخرة في ساعات الليل المتأخرة، وفي اليوم التالي أقلعت الباخرة في طريقها الى بيروت. وقد تعرف في اليوم الأول في الباخرة على «ماجد شيخ الأرض»، وهو مواطن سوري في الثانية والخمسين ويملك مزرعة قرب دمشق حيث ساعده هذا لاحقاً في دخول سوريا والتأقلم في دمشق. كما تحدث مع المسافرين المصريين الذين نزلوا في الاسكندرية. وكان «ماجد» قد سمعهم يتحدثون بالعربية فتوجه اليهم، وعرف بنفسه، وعندما عرف أن «كامل» مواطن سوري من المغتربين في الأرجنتين شعر بالارتياح لأنه وجد من يتبادل معه الحديث.

ترك «ماجد شيخ الأرض» و«كامل أمين ثابت» المجموعة

المصرية وانزويا وحدهما على طاولة منفردة، وحدّث «كامل» صديقه بأنه ولد في بيروت، لعائلة من حلب، ونشأ في الاسكندرية وهاجر مع أسرته الى الأرجنتين. وقال له انه منفعل جداً لأنه يزور الوطن للمرة الأولى. وأنه مستعدّ بأن يسخّر كل تجربته في التجارة والشركات التي يملكها لتشجيع الصادرات السورية الى الأرجنتين وأوروبا. وقال «وفي فترة الوحدة مع مصر وبسبب القوانين الشيوعية التي سنها عبدالناصر لم أفكر بالقيام بأعمال تجارية في دمشق».

شعر «ماجد» بارتياح وسرور لسماع كلمات «كامل أمين ثابت» ومضى يُفضي بمشاعره وأفكاره لكامل، حيث بيّن ارتياحه لنظام الحكم الجديد في سوريا. ووعد إيلي كوهين بأن يصحبه الى مزرعته قرب دمشق، كما دعاه لزيارته في بيته والتعرّف على أصدقائه الذين قد يقدّمون لـ«كامل» المساعدة. كما وعده بأن ينقله من بيروت الى دمشق بسيارته «الأوبل» الجديدة، والتي كانت محمولة على الباخرة، وأن ينظم له معاملة الدخول الى سوريا بواسطة صديقه الذي يعمل على نقطة الحدود.

الحديث عن النساء

وفي الأيام اللاّحقة تحدث «ماجد» باسهاب عن حياته وقال انه في عام ١٩٣٨ وحين بلغ الثامنة والعشرين هاجر الى أوروبا، حيث بدأ أخوه دراسته في برلين واستغل هو الفرصة لمرافقته. وقد تجوَّل الاثنان في باريس وإيطاليا وألمانيا، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية نصحه أخوه بأن يقيم معه في برلين، وأقام فعلاً هناك، وبدأ دراسته الجامعية هناك حيث حصل على منحة من حكومة هتلر، وبما أن الشباب الألمان كانوا في الجندية فقد توفّرت له امكانية التعرف على الفتيات الألمانيات والعيش على حسابهن «ماذا أقول لك يا كامل، يقولون ان النساء الفرنسيات سهلات المنال، ولكن من تجربتي أعرف أنه لا يوجد أفضل من الألمانيات، انهن يرتمين بسرعة، ولكنهن مخلصات».

وأضاف «ماجد» انه حاول بعد الحرب العودة الى دمشق عبر باريس، ولكن السلطات الفرنسية اعتقلته بتهمة التعاون مع النازية، ولكن أطلق سراحه بعد أن أثبت لهم أنه كان طالباً في الجامعة.

سأل «كامل» صديقه ان كان متزوجاً فانفجر «ماجد» ضاحكاً مثلي وقال: تصور أن سورياً مؤمناً مثلي تزوَّج من امرأة يهودية ولكن هذا الزواج استمر ٤٨ يوماً فقط، ففي أكتوبر ١٩٤٦ سافرت لزيارة «فريد الكيلاني» في قسم مراقبة الأجانب في المخابرات السورية، كان صديقي وزميلي في الدراسة، والآن يعمل مزارعاً في قرية «حماية»،

وكانت تعمل في مكتبه فتاة يهودية باسم «ليندە» وتحمل جواز سفر مصرياً، ووالداها من مواليد حلب، وبعد أن توفيا قررت العودة الى سوريا وسكنت في دمشق، وقد مددت فترة إقامتها أكثر من مرة وفي المرة الأخيرة طلبتُ من «فريد» أن يمدّد إقامتها، ولكن السلطات السورية رفضت ذلك بناء على تقرير من الشرطة. ويضيف «ماجد»، صادف أنني دخلت مكتب «فريد» في ذلك اليوم، وكانت «ليندە» هناك مُجهشة في البكاء، بسبب قرار طردها، وعندما حدثني «فريد» عن قصتها ولاحظ إعجابي بها قال: مشكلتها تحل اذا تزوجت من مسلم. قلت له: أنا أوافق أن تكون تحت حمايتي ولكن دون الزواج منها، فقال «فريد» اذا لم تتزوج فلن تجدد فترة إقامتها. وبعد أربعة أيام توجهنا الى القاضي «الشيخ عزيز ابحان» في حارة جسر الخانة وعقد قراننا. ولكن بعد بضعة أسابيع بدأ الخلاف بيننا فقررنا الطلاق.

وواصل «ماجد» سرد قصة حياته فقال انه سافر الى ألمانيا ثانية عام ١٩٤٧، كصحفي على حساب «وديع صيداوي» صاحب جريدة «النصر» الذي كلفه بأن يكتب الى الصحيفة عن ردود الفعل الأوروبية على القرار بإقامة «دولة إسرائيل» وبعد «هزيمة العرب» عام ١٩٤٨، أي في عام ١٩٥١ عمل «ماجد» في قوات الأمم المتحدة في كوريا وكان راتبه ١٨ ألف دولار سنوياً بينما كان يصرف ٨٠ دولاراً في الشهر فقط، وهكذا استطاع أن يوفّر الكثير من المال حتى عام ١٩٥٦ حيث غادر كوريا وسافر الى روما وعاد الى دمشق عام ١٩٥٧، وكان يسافر بين الفينة والأخرى الى أوروبا خصوصاً الى إيطاليا وألمانيا وكانت المرة الأخيرة في ربيع ١٩٦١ حيث سافر الى ألمانيا واشترى سيارة «أوبل» جديدة وتجوّل بها في أوروبا. وها هو يعود على متن الباخرة «استوريا» ليواصل حياته وأعماله في سوريا.

الوصول إلى بيروت

وصلت الباخرة الى ميناء بيروت في ٩ فبراير ١٩٦٢، وتوجّه الإثنان الى فندق «بلازا» حيث اتصل من هناك «ماجد شيخ الأرض» بصديقه الضابط «أبو خلدون»، وقال له: انه أحضر له ماكينة حلاقة كهربائية من ألمانيا «ان كنت لا تريد أن تدفع عنها الجمرك فالأفضل أن تكون غداً عند نقطة الحدود. وبالإضافة الى شوقي إليك فإنّني أحضرت معي مليونيراً أرجنتينياً من أصل سوري، جاء لزيارة الوطن، أنصحك بالتعرف عليه، واتفقا على موعد للقاء على الحدود».

وفي يوم السبت ٢٠/ ١/ ١٩٦٢ كان ماجد و«كامل» في طريقهما الى الحدود السورية، في سيارة الأوبل الجديدة، وعندما وصلا نقطة الحدود، أوقف ماجد سيارته بالقرب من مكاتب الجمرك وعاد الى مكتب الشرطة ليلتقي صديقه «أبو خلدون» حيث استقبله بحفاوة وعناق، وقاده ماجد الى سيارته ليتعرف على صديقه المليونير، وقال للضابط السوري ان «كامل» يحمل جواز سفر أرجنتينياً ولكنه شاب وطني ومخلص لشعبه، رجال أغنياء مثله يعودون الى سوريا ليخدموا وطنهم.

سهولة الدخول الى سوريا

خرج «كامل» من السيارة وصافح أبو خلدون. قال له أبو خلدون، أهلاً وسهلاً، كان الطقس ماطراً أمس ولكنه اليوم دافىء، لقد أحضرت الشمس والنور معك.

طلب منه جواز سفره، والتوقيع على طلب لتأشيرة دخول وأخذ منه ليرة سورية، وقال: أدخل أنت وماجد الى مدير الجمارك واشربا القهوة، فهو صديقي، وسأعود إليكما بعد إنهاء المعاملة. وبعد عشر دقائق عاد أبو خلدون وهو يحمل جواز السفر الأرجنتيني، وقال له أعطيك مدة إقامة لستة أشهر، وإذا رغبت في البقاء فلن تواجه مشكلة، حيث سيصحبك ماجد الى مركز الشرطة لتمديد الإقامة. وبعد دقائق غادر الاثنان نقطة الحدود بعد أن ودّعهما مدير الجمارك والضابط أبو خلدون، وكان كامل مندهشاً من هذه السهولة في الدخول الى سوريا.

تابع ماجد و«كامل» سيرهما الى دمشق ومنها توجها الى مزرعة «ماجد شيخ الأرض»، في قرية «الربوة». وفي المساء التقى ماجد وكامل وأبو خلدون في فندق أمبسادور في دمشق حيث تناولوا طعام العشاء هناك بدعوة من كامل. وهناك تحدث لهما كامل عن برامجه

للأيام المقبلة، قائلاً أنه سيقوم بجولة للتعرف على الأماكن المقدّسة في دمشق وبعدها سيتفرغ لأعماله. ووعده الاثنان بأن يساعداه في التعرف على دمشق. واستمرت علاقته بهما، وكان يدعوهما لتناول العشاء في أفخر المطاعم، كما دفع لأبي خلدون ٤٠٠ ليرة سورية أجرة بيته ولماجد حوالي ٥٠٠٠ ليرة سورية حسب اقراره لهيئة المحكمة.

الجاسوس عند مدخل رئاسة الأركان السورية

بعد أن تناول «كامل أمين ثابت» طعام الافطار، صباح الأحد ١١/١/١٩٦٢، في فندق «الامبسادور» وصل صديقه ماجد شيخ الأرض، وخرج الاثنان في جولة في سيارة «الأوبل» على ضفة نهر «بردى» حتى وصلا الى «الغوطة»، وزارا مسجد بني أمية. لقد أعجب «كامل» بجمال المدينة وحدائقها وأماكنها الأثرية، وبعد أسبوع أخبر صديقيه ماجد وأبا خلدون أنه قرر تمديد إقامته في دمشق. وانه يعتقد بأن بعض الأعمال اليدوية المعروضة في السوق قد تهم الأوروبيين وأنه سيحاول عرضها عليهم. اقترح أبو خلدون على «كامل» أن يترك الفندق ويستأجر شقة في المدينة. وقال له: أعرف شقة مؤثّثة في بيت جديد مع تلفزيون وفي مكان جيد، وأعرف كذلك فتاة جميلة تستطيع القيام بأعمال المنزل. فأجاب «كامل» ان فكرة الشقة تعجبني ولكنني أفضل الانتظار بضعة أيام قبل أن أترك الفندق، حيث أود التعرف على المدينة وأحيائها، أما الفتاة فلا داعي لها لأنك ستمضي كل وقتك بصحبتها وتلهيك عن عملك، وأنا متيقن أنك ستقضي كل الأيام عندي لمداعبتها. انفجر ماجد شيخ الأرض ضاحكاً وقال مازحاً مع أبي خلدون، «لقد اكتشف كامل خلال أسبوع واحد كل نقاط الضعف».

وفي اليوم التالي، بدأ «كامل» بتنفيذ المهمة التي جاء من أجلها الى دمشق، فقد حمل الرسالة التي احضرها من بيونس آيرس وراح يبحث عن حانوت «كامل الخشن»، الواقع في حارة اليهود، لم يكن الخشن في الحانوت، بل كان ابنه البكر «راتب». عرّف عن نفسه وقال له انه يحمل رسالة من جده في بيونس آيرس. ووعده أن يعود في اليوم التالي الساعة العاشرة صباحاً وطلب أن ينتظره والده في الحانوت. . . وعندما عاد في اليوم الثاني وجد كامل الخشن بانتظاره حيث استقبله مرحباً ومعانقاً، وأعطاه كامل الرسالة وحدثه عن والده وعن الجالية العربية في بيونس آيرس. وبعد أن تناولا الطعام في مطعم صغير، دعاه الى بيته للتعرف على زوجته وأولاده، ولتناول طعام العشاء، وعندما وصل منزل الخشن في المساء كانت بانتظاره مفاجأة سارة، فقد دخل شاب وسيم عرّفه عليه كامل بقوله: «معزّة زهرالدين»، موظف في وزارة الشؤون البلدية، وليفتنانت سابق في الجيش، انه ابن أخ رئيس أركان الجيش عبدالكريم زهرالدين، من المفيد أن تصغي اليه لأنه يعرف ما يقول.

عروض الزواج

لم يخفِ «كامل» فرحته، وخلال عشرة أيام فقط كان يمسك بطرف الخيط الذي وصل من خلاله الى مراكز القوى. فقد عمَّق صداقته مع معزّة والخشن وحدثهما عن ماضيه في الأرجنتين وأمواله الكثيرة وشركة السياحة التي يملكها، وقال ان أمواله تقدر بملايين الدولارات. وهذا ما دفع زوجة الخشن لأن تقترح عليه الزواج من إحدى شقيقاتها جميلة أو ليلى. . . كما حاول ماجد شيخ الأرض اقناعه بالزواج من ابنة أخيه «حياة» الجميلة، ذات العينين السوداوين، ولكن «كامل» عرف كيف يتخلص بلباقة هذه المرة أيضاً. وخلال زياراته لبيت ماجد تعرف على حيدر مردم وبدري داغستاني وهما من الشخصيات المعروفة في سوريا.

بعدها أمضى «كامل» بضعة أيام في البحث عن شقة، وقد تذكَّر توصيات «سلمان» بأن يحاول إيجاد شقة قرب قيادة الأركان السورية أو وزارة الخارجية ليتمكن من مراقبة ما يحدث، ولعدم إثارة الشبهات بدأ بالبحث في الحي الشعبي «الميدان» الذي يسكنه البدو والأكراد، ثم بحث في مركز المدينة بالقرب من ساحة «المرجة» وبالطبع لم تُعجبه أيَّة شقة، فتوجه الى صديقه كامل الخشن الذي

عرَّفه برجل يعرف الشقق في الأحياء الغنية خصوصاً الصالحية وأبو رمانة حيث تتواجد السفارات الأجنبية، ويسكن الأثرياء وكبار الموظفين وضباط الجيش، وأخيراً استطاع الوصول الى شقة في حي أبو رمانة في عمارة سعيد رميح، مقابل رئاسة أركان الجيش وقصر المغتربين السوريين. وقد احتوت الشقة على خط هاتف وغرفة جلوس واسعة ومطبخ كبير وحمام مبلّط وأربع غرف نوم، وقد وزَّع «كامل» الغرف بنفسه حيث جعل احداها مكتباً والأخريان غرفة نوم وجلوس له ولأصدقائه، واكتشف في الشقة مكاناً لإخفاء جهاز «المورس». بعدها وقَّع عقد الإيجار لسنة كاملة، وأبلغ صاحب البيت أنه قد يغادره لفترات متقاربة خصوصاً في أشهر الصيف الحارة، ولكن عند عودته في الخريف، فإنه يفضل الرجوع الى الشقة مباشرة وليس الى الفندق.

رسالة عاجلة

في ١٦ فبراير أرسل «كامل» رسالة عاجلة الى «زيلنغر» في زيوريخ على ورق رسائل مروس تحت عنوان شركة «دافيمكس» التي أصبح وكيلها في الشرق الأوسط، كتب «كامل»: سيدي العزيز جداً «وهي كلمة السر بينهما» ثم أسهب في الكتابة عن الامكانيات التجارية في سوريا، ووعد بأن يقدّم للشركة اقتراحات مفصّلة أكثر في المستقبل القريب، وطلب رداً على اقتراحاته.

في ٢٤ فبراير نظر الى بناية رئاسة الأركان السورية من غرفته في الطابق الرابع، ولاحظ أن الأضواء في البناية مطفأة باستثناء غرفتين، وان سيارة واحدة خرجت من ساحة البناية. وقف على كرسي وأخرج جهاز الموريس الصغير ووضعه بجانبه على السرير وأوصل سلك ماكينة الحلاقة بجهاز راديو ترانزستور وأخرجه من الشباك. وفي الوقت المحدد، اتصل «بتل أبيب»، وبعد أن أرسل رقم هويته، جاء الجواب «أننا نسمعك، خمسة خمسة» وبعد ٣ دقائق، كانت البرقية في «تل أبيب». وبعد أن انتهى أعاد جهاز «الموريس» الى مكانه وأتلف البرقية المكتوبة وخرج الى الشارع.

لم تكن البرقية الأولى عادية، فقد احتوت على فقرتين هامتين، ان النظام الحالي في دمشق يميل الى توثيق العلاقات مع العراق، وعلى استعداد لإقامة قيادة مشتركة، وان الجيش السوري

تسلّم مؤخراً من الاتحاد السوفياتي مدافع جديدة سوف تنصب على الحدود مع إسرائيل. هذه المعلومات وصلت لـ«كامل» من صديقه معزّة زهرالدين.

أرسلت البرقية الى «تل أبيب»، وبعد أن ترجمت الى العبرية وزعت على أجهزة المخابرات بتوقيع «منشة».

شعر «كامل» بأهمية توثيق العلاقات مع معزّة زهرالدين، كما شعر كذلك بأهمية توثيق العلاقات بالآخرين لكي لا ينحصر اعتماده على مصدر واحد، فخلال ساعات النهار كان يجول في المدينة ويدخل الأماكن العامة ويلتقي بالناس ليجمع المعلومات عن الأوضاع السياسية والاجتماعية من كافة الفئات. وكان في أحاديثه يظهر اهتماماً بالتجارة. كما أرسل الى أوروبا عدداً من طاولات الزهر التي أخفى فيها أفلاماً صغيرة مصورة. وكان يتظاهر أمام الناس كوطني سوري شديد الحقد على «إسرائيل»، ويؤمن بأن على الجيش السوري مضاعفة عدد قواته وتعزيز مواقعه على الحدود، وهذا عزّز ثقة معارفه به.

في مطلع مارس، تعرّف «كامل» على جورج سالم سيف، الذي عمل في الإذاعة السورية مسؤولاً عن قسم البث باللغة الاسبانية والموجهة الى المغتربين العرب في أميركا اللاتينية، وكان سيف قد هاجر الى بيونس آيرس حيث عاش هناك أربع سنوات، وأصدر مجلة أدبية باسم «السيف»، كما كان يكتب الى جريدة «العالم العربي».

ولد جورج سالم سيف عام ١٩٣٤ لأسرة مسيحية ثرية من حماه، وفي مطلع الخمسينات هاجر مع أمه وشقيقته الى البرازيل ومنها الى بيونس آيرس، واشتهر هناك ككاتب يجيد اللغة العربية وآدابها وكشاعر غزل أيضاً.

لقاء مع طيّار

تعرّف «كامل» على جورج سيف بواسطة كامل الخشن وعمر الشيخ الموظف أيضاً في القسم الاسباني في الاذاعة السورية، وتواصلت اللقاءات بين «كامل» و«سيف» وفي احداها عرّفه «كامل» على صديقه معزّة زهرالدين وعرفه سيف على صديقه عدنان الجابي وهو طيّار «ميج ـ ١٧» في الجيش السوري.

معظم هذه اللقاءات كانت تتم في مقهى «الكمال» حيث كان يلتقي كل من الخشن ومعزّة زهرالدين وجورج سيف ومعن داود، الموظف في وزارة السياحة، والطالب في الجامعة وماجد شيخ الأرض. كانوا يلعبون الزهر ويتحدثون في السياسة والاقتصاد والأمور العسكرية. لكن «كامل» لم يكتف باللقاء مع سيف في المقهى، بل كان يزوره في مكتبه حيث يجد على طاولته معلومات سياسية صادرة عن وزارة الاعلام السورية، وقصاصات من الصحف اللبنانية صادرتها الرقابة ومعلومات أخرى متعددة، وكان بالطبع يقرأ كل هذه المعلومات، وأحياناً كان يستفسر من صديقه عن مصادرها اذا لم تكن واضحة. وذات يوم دخل «شفيق جريدة» المسؤول عن سيف الى غرفته فوجد «كامل» يطالع هذه المنشورات فغضب من

سيف وقال له: كيف تسمح لأجانب بدخول مكتبك والاطلاع على منشورات سرية؟

فقال له سيف انه سائح أجنبي لا يقرأ اللغة العربية... وبعدها طلب سيف من «كامل» أن لا يأتي الى مكتبه وأن يكتفي باللقاء في ساعات المساء، ولكن حب الاستطلاع لدى «كامل» دفعه لسؤال سيف باستمرار عن آخر الأخبار والتطورات، وكان هو ينقلها بدوره الى «إسرائيل».

معارك متفرّقة

طرأ في تلك الأيام توتّر على الحدود السورية ـ الإسرائيلية، ففي ٨ مارس أطلق السوريون النار على صيادين «إسرائيليين» على شواطىء بحيرة طبريّا، وعلى زورق تابع للشرطة الاسرائيلية خفّ لنجدتهم فجرح إسرائيليان. وقد جاء هذا التغيير في سياسة سوريا نتيجة لتوثيق علاقاتها مع العراق، ففي ١٦ مارس، سافر الرئيس السوري ناظم القدسي الى بغداد، حيث اجتمع مع عبدالكريم قاسم بهدف بحث عقد تحالف عسكري بين البلدين. وكان «كامل أمين ثابت»، قد أرسل الى «إسرائيل» برقية أبلغ فيها ان حالة الطوارىء قد أعلنت في الجيش السوري، وان قوات سورية تتحرك صوب الحدود مع «إسرائيل».

قررت «حكومة اسرائيل» أن توكل الى لجنة وزارية برئاسة «بن غوريون» البحث عن طريقة للرد على سوريا. وتوجه بن غوريون الى طبريّا حيث أمضى إجازة هناك في فندق «غالي كنيرت» وظل بالطبع على اتصال برئاسة الأركان مع الجنرال «تسفي تسور» وقائد المنطقة الشمالية «منير زوريع»، وبناء على تعليمات بن غوريون عززت «اسرائيل» قواتها على الحدود الشمالية.

وفي صباح يوم الجمعة، ١٦ مارس، أطلق السوريون النار من موقع اسمه «النقيب» على صيادين «إسرائيليين» في بحيرة طبريّا، من مدافع سوفياتية كان «كامل» قد أبلغ عن دخولها، كما حلّقت طائرات «الميج» لكنها لم تقترب من الحدود. فأصدر بن غوريون أوامره بأن يقوم الجيش الاسرائيلي بمهاجمة المواقع السورية التي أطلقت النار، كما قامت فرقة مشاة من الجولان بالزحف على موقع «النقيب» وبعد معركة دامية استمرت أربع ساعات احتل الموقع.

ومن الأمور الهامة، والتي لم يذكرها الكاتب هنا، هو ان إيلي كوهين كان قد أبلغ قادته أولاً بأول عن تحركات الجيش السوري. فقد ورد في احدى برقياته «ان الأنوار مشتعلة بشكل متواصل حتى الفجر في مقر قيادة الجيش، وليس من المتوقّع ان يحدث انقلاب، وان الاحتمال الأكبر هو الاعداد للقيام بعمل ما ضد القوات الاسرائيلية، خاصة وان الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون تتحدث بلهجة شديدة العداء «لاسرائيل»، اضافة الى حركة ناشطة للجيش في الشوارع.

هذه البرقية وزّعها «الموساد» على سائر قطاعات الجيش الاسرائيلي في الشمال، وعليه كان الاسرائيليون متنبهين لما قد يحدث، وبهذا اثبت كوهين صحة الحكمة السائدة في أوساط المخابرات «ان الجاسوس الجيد يعادل فرقة كاملة».

ثم يستطرد الكاتب قائلاً: لقد أثارت العملية الاسرائيلية غلياناً في الجيش السوري، وخرجت صراعات بين قيادة الجيش والحكومة، حيث تحول الخلاف حول جدوى التحالف العسكري العراقي - السوري، اذ قال ضباط الجيش ان لا قيمة لهذا التحالف، بل انه يقوّي العناصر الناصرية في الدولة والجيش ويثير الخلافات بين الضباط.

ثلاث تيارات في الجيش السوري

كان «كامل أمين ثابت» يعرف عن هذه الخلافات من خلال ما كان يقوله معزّة زهرالدين ـ كما قال لاحقاً أمام المحكمة ـ وبالرغم من هذه الصراعات، فقد نجح رئيس الأركان السوري في المحافظة على موقفه المحايد، بين تيارات ثلاث برزت آنذاك :

أ ـ تيار الضباط برئاسة الكولونيل عبدالكريم النحلاوي الذي كان وراء الانقلاب الذي أدّى لانفصال سوريا عن دولة الوحدة مع مصر، فقد أقام النحلاوي «مجلس الأمن القومي» وحاول بالقوة العسكرية وضع الجيش فوق السلطة السياسية.

ب ـ تيار الضباط الناصريين برئاسة الكولونيل جاسم علوان وهو قائد وحدة مدرّعات كانت ترابط في حمص.

جـ ـ تيار الضباط البعثيين برئاسة الكولونيل صلاح جديد والقسم الأكبر منهم خدم في الجبهة على الحدود ضد إسرائيل. وكان «كوهين» قد أبلغ عن هذه التيارات الثلاثة في برقية رقم «١٥١».

صباح ٢٨/ ٣/ ١٩٦٢، وقع الانقلاب العسكري السابع والذي

توقّعه «كامل أمين ثابت»، وقاد الانقلاب أيضاً الكولونيل نحلاوي الذي أذاع بلاغ رقم «٢٦» بإسم مجلس الثورة والذي جاء فيه: «لقد استولى الجيش على السلطة للحفاظ على استقلال الدولة، واعدادها للنضال من أجل تحرير فلسطين» وعلى الرغم من أن الأمور بدت وكأن نحلاوي نجح في الانقلاب، الا أنه وضع اسفين نهاية نجاحه بيده، وذلك بارتكابه خطأ إقالة رئيس أركان الجيش الجنرال عبدالكريم زهرالدين، دون أن يعتقله، فاستفاد زهرالدين من حرية الحركة وتوجّه الى كلية الضباط في حمص. وفي الأول من نيسان استدعى قادة الوحدات العسكرية المرابطة خارج دمشق وقرّروا معاً تنحية نحلاوي ومؤيديه من الضباط. وإعادة السلطة الى السياسيين برئاسة «ناظم القدسي» والتعاون مع الدول العربية المجاورة.

بدأت بعض الوحدات المؤيدة لزهرالدين بالتحرك صوب دمشق، وفي الثاني من ابريل، أعلن الكولونيل غسان علوان عن تمرّد الجيش في حمص وحلب. ولكن بعد نجاح عبدالكريم زهرالدين في السيطرة على الوضع، هرب الكولونيل غسان علوان من حمص الى القاهرة، واما النحلاوي وزملاؤه، فقد لجأوا الى بيروت ومنها الى سويسرا.

عاد زهرالدين في ٤ ابريل الى موقعه في رئاسة الأركان وعاد ناظم القدسي الى رئاسة الجمهورية، وتخلّى عن فكرة التحالف مع العراق. وفي ١٦ ابريل، أعلن عن حكومة سورية برئاسة بشير العظمة وهو طبيب كان قد شغل منصب وزير الصحة ابان حكومة الوحدة، وكان يُعرف بميوله الاشتراكية المعتدلة، فقد أعاد تأميم البنوك وأبدى ميلاً لتحسين العلاقات مع مصر والعراق.

في الفترة ما بين ٣/٢٨ ـ ٤/٤ كان معزّة زهرالدين يخبر صديقه «كامل أمين ثابت» كل شيء يعرفه من خاله عبدالكريم زهرالدين. وعندما أصبح زهرالدين الشخصية الأقوى في دمشق، أدرك «كامل» الأهمية القصوى التي تكتسبها صداقته مع معزّة زهرالدين، ولذا تكثّفت اللقاءات بينهما في المطاعم الفاخرة، وكان «كامل» بين الفينة والأخرى، يقدّم لصديقه هدية صغيرة، وبعد كل محادثة كان ينزوي في غرفته ويخرج جهاز «الموريس» ويبث الرسائل الى «اسرائيل».

ومن المعلومات التي أرسلها في هذه الفترة، قرار الاتحاد السوفياتي بتزويد سوريا بسربين من طائرات «ميج ـ ١٩» التي أُعلن عنها بعد أسابيع في الصحف السورية.

في ١٩ ابريل وصلته برقية بأن زوجته حامل، فرد عليها بأخرى يهنئها ويعرب عن سعادته بالخبر. وفي هذه الأثناء قرر «داني وسلمان» دعوة كوهين الى تل أبيب لقضاء إجازة، وكانت «ناديا» في الشهر الأخير من الحمل ولذا لا بد أن يكون الى جانبها ساعة الولادة. اضافة الى أسباب أخرى تقتضي عودته. ففي الفترة ما بين ٢٤ فبراير حيث أرسل برقيته الأولى ويوم ٤ يوليو حيث ترك دمشق كان قد أرسل ٦٢ برقية. وهذا يعني انه يعرف معلومات أكثر بكثير مما أرسله بواسطة البرقيات، كما انه من الأفضل ان يظهر للسوريين بأن عليه السفر الى أوروبا كي ينظم أموره التجارية. وبذلك يكون قد أبقى على نفسه مغطى بشكل مناسب.

بدأ «كامل» استعداداته للسفر، وعليه أخبر معزّة وسيف بأنه

ينوي مغادرة سوريا في نهاية يونيو أو مطلع يوليو، وقال لماجد والخشن ان شركة «دافيمكس» غير راضية عن عمله وتريد فحص إمكانية زيادة نشاطها في سوريا. ضحك سيف وقال: هل تؤمن بإمكانيات الربح في سوريا؟ فالوضع هنا ليس مستقراً، ثم ما الذي يشغلك؟ أنت إنسان ثري. وتنتظرك ورثة ضخمة، وأنت عازب، ابق معنا، وقريباً ستتم خطوبتي وآمل ان تحضر حفل الخطوبة في حمص. فأجاب «كامل»، سآتي الى الحفل بلا دعوة، وحتى لو كنت في أوروبا سآتي ولو فقط من أجل رؤية «القيود على يديك».

في مطلع يونيو سافر الى حمص لحضور حفل خطوبة سيف على «مينرفا»، حيث أمضى هناك يومين تعرف فيهما على والدة سيف وشقيقته. وكان قبل ذلك قد أبلغ «تل أبيب» أنه سيسافر الى حمص وطلب عدم الاتصال به.

بعد عودته من حمص، سافر مع معزّة وعدنان الجابي الى بيروت لقضاء إجازة نهاية الاسبوع. وقد رافقهما محمد حمزة، وهو ضابط سابق في الجيش السوري، وضابط سابق آخر هو فاروق أبو شاكر وثلاث نساء. وبعد أن عاد من بيروت أخذ يستعد للسفر الى أوروبا. ففي ١٢ يوليو وصلته برقية من «تل أبيب» هذا نصها: «وصلتنا برقيتك رقم ٨٦، تنقصنا برقية ٨٥، رسالة نادية لم تصل، احجز تذكرة في الباخرة «استوريا» التي ستقلع من بيروت في ٤ يوليو، لا تنزل عن الباخرة عندما ترسو في الاسكندرية في ٥ يوليو، اللقاء في زيوريخ».

هذه البرقية غيرت برنامج سفره، ولكن في ١٩ يونيو وصلته برقية اخرى هذا نصها:

«احجز مقعداً في الطائرة من بيروت الى بروكسل في مطلع يوليو، اتصل «بهاري» تليفون ٣٣٢٨٣٢، واللقاء في شارع ميتشيل رقم ١١. اكتب اليه عن وصولك، أكّد على وصول البرقية». وفي اليوم التالي استلم برقية اخرى: «وصلت برقيتك رقم ٩١، نفضّل عودتك الى بروكسل، احجز في ٤ يوليو».

لقد أزعجته هذه التغييرات، واضطر من أجل ترتيب سفره نهائياً للسفر الى بيروت مع صديقه ماجد شيخ الأرض لترتيب أمور السفر وشراء التذكرة من الوكالة في بيروت.

في ٤ يوليو هبطت الطائرة في ميونيخ، وبعد استراحة قصيرة واصلت اقلاعها الى بروكسل، وهناك كانت بانتظاره مفاجأة، فبالإضافة الى «زيلنجر» الذي اعتاد التقاءه في أوروبا، كان هناك «دان» المسؤول المباشر عنه، وفي الفندق قدم جواز سفره الأرجنتيني الى «زيلنجر» واستلم منه جواز سفره «الاسرائيلي»، وتذكرة السفر الى «إسرائيل». كما ترك معه بعض الرسائل ليرسلها فيما بعد الى «أصدقائه» في سوريا. حدّث «داني» عن عمله في سوريا، وقدّم له صورة معزّة زهرالدين، فقال «داني» يجب أن توثّق علاقتك به عند عودتك، وعندما تعود الى البلاد سوف نسمع منك المزيد عنه، والآن الأفضل أن ترتاح وأن تعود الى زوجتك وطفلتك، وبعدها سنواصل الحديث فلدينا العديد من الأسئلة. وفي اليوم التالي كان في طريقه الى «اسرائيل» وقد حمل معه هدايا لزوجته وطفلته صوفيا.

أمضى إجازة قصيرة في «رمات جان» وعندما وصل «سلمان

الى بيته» قال لزوجته: «جئت لآخذ إيلي: فقالت نادية: أرجو أن تعيده الينا في المساء». وخرج الاثنان متوجّهين الى مكتب في أحد شوارع «تل أبيب» الرئيسية. كانت جدران المكتب مغطّاة بالخرائط والصور، وطلب «سلمان» من إيلي أن يكتب عن مشاهداته بإسهاب وتفصيل، وقد استغرقه ذلك يومين كاملين من الكتابة حيث قدّم ذلك في تقرير الى المسؤولين عنه وبعد ذلك عاد الى زوجته وأولاده لمواصلة إجازته وقضاء الوقت مع زوجته وابنته وأبناء العائلة.

بعد بضعة أيام بدأ السيرك كما أسماه «سلمان»: فقد التقى مع ضباط جهاز الاستخبارات في سلاح الجو الاسرائيلي الذين طلبوا شرحاً لبعض النقاط الواردة في التقرير. فمنهم من التقاه وجهاً لوجه ومنهم من كان يتحدث اليه من وراء ستار. سئل عن الشخصيات التي كان يتعامل معها، وعن معنويات الجيش السوري والتحالف مع العراق، وأعطى إجابات مستفيضة عن جميع الأسئلة التي وجهت إليه.

في ٦ سبتمبر ١٩٦٢ ولدت زوجته طفلتها الثانية، «عيريت». كانت راغبة في طفل ذكر، ولكن إيلي قال لها: «ان طفلة ثانية هي فأل بأطفال ذكور عديدين فيما بعد». وبعد أسبوع بدأ الاستعداد للعودة إلى دمشق. حيث التقى مع «سلمان» الذي قال له انه قرأ تقريره وانه يعرف جيداً عن نجاحاته وأصدقائه، ولكن أكثر ما يهمه هو كيف يتغلب «كامل أمين ثابت» على وحدته، وكيف يرى هذا الوضع الفريد في دمشق.

قال إيلي: في دمشق شخصان هما مصدر معلوماتي: معزّة زهرالدين وجورج سيف وهما صديقان لي. هنا قال «سلمان»:هذا ما

أريد أن أعرفه، فاللحظة الخطيرة في حياة الجاسوس هي حينما يصبح «ذئباً وحيداً». لأن هذا يجلب له المخاطر، لست أدري الى أي مدى يمكن أن يساعدك جورج سيف في المستقبل، ولكن ما دام الجنرال زهرالدين هو رئيس الأركان في سوريا، فلا بد من أن تحافظ على صداقتك لمعزّة زهرالدين. ولكن حاول أن لا ترتبط به عاطفياً والا تكون لك مغامرات نسائية، لأجل هذا الأمر أردت التحدث معك اليوم. ولكي يعزّز أقواله، اخرج «سلمان» من جيبه كتاباً اسمه «مرشد الجندي البريطاني» بقلم غرانت وولسي كتبه عام ١٨٦٩، وقرأ منه المقطع التالي:

«يعلموننا أن لا نحترم النجاح الذي تحقق عن طريق الكذب، ويعلموننا أيضاً بأن الاستقامة هي أفضل السبل، وان الحقيقة لا بد منتصرة في النهاية، هذه المشاعر السامية ممتازة للأطفال، اما إذا اتبعها الرجل، فالأفضل له أن يبقي سيفه في غمده مرة، وإلى الأبد»[١].

بعد أن انتهى «سلمان» من تقديم التعليمات الى كوهين، توجه «إيلي» و«دان» الى مطعم صغير على شاطىء يافا. وهناك أوصَاه بأن يقلل من استعمال جهاز «الموريس»، ولكنه قدّم له بشرى سارة وهي

(١) مع أن واضع هذه التعليمات ليس يهودياً فان اليهود هم أكثر من استفاد منها وطبقها فالمسؤول عن كوهين يحذره من الارتباط عاطفياً بأصدقائه لأن هذا الارتباط سوف يقوده ـ ربما ـ للرجوع الى إنسانيته وهذا خطير. ان جميع المذاهب والأيديولوجيات تحض على أعلى مستوى أخلاقي ممكن باستثناء الميكيافيللية التي أرست دعائم الفكر الرأسمالي الغربي، والقائمة أساساً على «أن الغاية تبرر الوسيلة»، واذا وضعنا في الاعتبار ان اسرائيل كانت نتاجاً لتطابق مصالح الصهيونية والرأسمالية الغربية، لأدركنا سبب هذه الدقة الاسرائيلية في اقتفاء آثار مفكري وعسكريي واقتصاديي الغرب

أن يقوم «إيلي» بتصدير منتوجات سورية إلى أوروبا مثل المناديل وعلب الدخان وطاولات الزهر وأشغال يدوية تراثية وغيرها. وقد رصد لهذا الشأن بضعة مئات من الدولارات.

صباح ٢٤ سبتمبر، ودع إيلي زوجته متوجهاً الى مطار «اللد»، فقالت له زوجته: «أعرف الى أين أنت متجه، ولست مقتنعة بقصصك التجارية في أوروبا، ولكنني مقتنعة بشيء أهم هو أن تحافظ على نفسك من أجلك أنت ومن أجل طفلتينا».

هبطت الطائرة في بروكسل بعد الظهر، وبعد أن اتصل هاتفياً مع «زيلنجر» اتفق على لقاء في الفندق. وهناك أخذ منه ٥٠٠ دولار واستعاد جواز سفره الأرجنتيني.

وفي ٢٧ سبتمبر، غادر «كامل أمين ثابت» بروكسل وبعد بضع ساعات كان في شقته بدمشق.

حفلات، «المتعة» في دمشق

في اليوم التالي لعودته الى دمشق، التقى «كامل» بأصدقائه، معزّة زهرالدين والطيّار عدنان الجابي ومحمد حمزة وكان يعمل مع معزّة في وزارة الشؤون البلدية، وفاروق أبو شاكر. وكان حديثهم حول طاولة الطعام حول الانقلاب في اليمن الذي أطاح بالنظام الملكي، وقيام عبدالناصر بدعم النظام الجديد برئاسة عبدالله السلال، واتفق الجميع على ان انشغال عبدالناصر باليمن سوف يحوّل تركيزه عن سوريا، ولكن «كامل» أعرب عن خوفه من «إسرائيل» باعتبار ان هذا الهدوء سوف يصرف النظر عن الحدود مع «إسرائيل» بقوله: «ان اليهود مشهورين بالاحتيال، وإذا لم نعزز مواقعنا فإنهم سيهاجموننا»، لكن معزة هدأ من روعه مشيراً الى ان المواقع معزّزة وأعرب عن استعداده بأن ينظم «لكامل» جولة على الحدود كي يتأكد ان الضباط يقظون على الحدود.

في ٧ أكتوبر ركب كامل ومعزّة وفاروق أبو شاكر سيارة الفولكسفاجن التي يملكها محمد حمزة وقاموا بجولة على طول الحدود السورية الاسرائيلية. وفي بدء الجولة توقفوا في قيادة الجبهة في القنيطرة، حيث قدم معزّة وأحد الضباط شرحاً مفصلاً «لكامل»

عن المواقع السورية والوضع على الطبيعة[١]. وكشفوا له عن خريطة عسكرية توضح إقامة حي عسكري جديد في القنيطرة. شكر «كامل» معزّة بقوله «الحمد لله، أنا الآن مطمئن، وأظن انه بغض النظر عما يحدث في دمشق، فإن جنودنا البواسل، يقومون بواجبهم في الجبهة على أكمل وجه، للأسف لا يمكن احضار كل الشعب السوري الى هنا ليروا ويعتزوا بمشاهدة جنودهم». قال معزّة: المشكلة ليست الشعب السوري، بل الجيش، وتحدث عن المعارضة التي يواجهها خاله في بعض الوحدات العسكرية، والخلاف بينه وبين قائد سلاح الطيران موفق عصاصة.

وبعد تناول طعام الغداء في نادي الضباط بالقنيطرة، ساروا باتجاه «الحمة» وعند مفترق «خشينة» مروا بتلال الباطون التي كانت بمثابة حواجز لاعتراض تقدم الدبابات. قال معزة: ان حواجز كهذه ستقام في أماكن اخرى على طول الحدود، كما شاهدوا مدافع منتشرة على طول الطريق وخاصة من عيار ١٢٢ملم، وخنادق الجنود المشاة، ومن قرية «بيك» نظروا الى مستوطنة «عين جيب» وشاهدوا حركة السيارات على طريق طبريّا. وفي ساعات ما بعد الظهر وصلوا «الحمة» حيث قضوا ليلتهم في فندق مجاور لنادي الضباط ومساكن عائلاتهم. وتناولوا العشاء في مطعم كان غاصّاً بالضباط العاملين في الجبهة هناك، حيث تحدث هؤلاء الضباط بحرية تامة عن الوضع في

---

(١) يبقى هذا الكلام لا دليل عليه وعادة اليهود دائماً الإستخفاف بالجيوش العربية وتصويرهم وكأنهم من السهل أن يخترقهم العدو وهذا الكلام غير دقيق ولم يعترف «كوهين» نفسه بمثل هكذا جولة وعلى هذا النحو المفصّل لذا يبقى هذا الكلام موجوداً فقط في خيال المؤلّف.

المنطقة، وقالوا: ان الوضع هادىء نسبياً، وان اليهود يحافظون على الهدوء، كما انه ليس من مصلحة الجيش السوري استفزازهم، ولكن إذا حاول اليهود الهجوم فان مفاجأة تنتظرهم، فالجيش السوري متمركز بشكل جيد، كما ان لديه مدافع جديدة قدمها الاتحاد السوفياتي، وأسلحة اخرى استعملت بشكل ناجح في «نقيب».

سجل «كامل» هذه النتائج في البرقية رقم ٣٤ وأرسلها في ٨ أكتوبر بالرغم من تعليمات رؤسائه بألا يرسل قبل مرور اسبوعين على وصوله، حيث فعل ذلك بعد مرور ١١ يوماً فقط، وذلك نظراً لانفعاله الناتج عن أهمية ما يحمل من معلومات.

في ١٢ أكتوبر احتفل الكولونيل خليل سافور المسؤول عن الوقود في الجيش السوري بعيد ميلاده، ودعا كامل وجورج سيف وخطيبته «ناديا» الزيّات واختها كلير وفرحة مطرجي سكرتيرة أديب نجمي وكيل وزارة الاعلام والتي كان جورج سيف يحبها. كما حضر الحفل ماجد شيخ الأرض ومعزّة زهرالدين وكمال الخشن وماري الماز زوجة إيلي الماز الذي يعمل في برج المراقبة في مطار دمشق الدولي، والتي كان الكولونيل سافور ميالاً إليها، ولكنها كانت تميل الى «كامل أمين ثابت».

كانت الحفلة في بيت الكولونيل سافور «هيصة حقيقية» فالطعام مما لذّ وطاب، كما أفرغت زجاجات الويسكي والعرق واحدة تلو الأخرى، وكانت الموسيقى مطربة ومثيرة، جلست ماري الماز طوال الوقت الى جانب «كامل» وكانت تهمس في أذنه: لماذا لا تريد أن تخطب أخت زوجي، روجيت؟ لا حاجة لأن تتزوجها، ولكن إذا تمت الخطوبة يصبح من السهل عليَّ الاختلاء بك، وهكذا

لا نفتح مجالاً للقيل والقال عندما أزورك.

أما الكولونيل سافور، فأعرب عن امتعاضه لعدم استجابة ماري الماز لملاحقاته، وهدد بأن يكشف لزوجها عن علاقاتها بالآخرين، وفي نفس السهرة قدّم جورج سيف أخت نادية، كلير، لصديقه «كامل» كي يخطبها، ولكنه اعتذر قائلاً انه لا يرغب في العلاقات المؤطرة.

كان خليل سافور ثملاً، فحاول معزة ان يستفزه بقوله: «يا خليل أين مخازن الوقود؟ طبعاً لقد أفرغتها وعبأتها بالويسكي. انفجر الجمهور ضاحكين، فرد سافور قائلاً: لا تقلق. المخازن معبأة، وهي في الأماكن التي أمر خالك بوضعها فيها. ولكي يثبت أنه ليس ثملاً، تناول ورقة ورسم عليها مواقع الخزانات والمواقع العسكرية المجاورة لها ولكن قبل أن يبدأ الرسم توجه الى ماري الماز وطلب منها أن تجلس الى جانبه ففعلت، وهكذا فعل أيضاً «كامل» ومعزّة[١].

وخلال السهرة، لم ينتبه أحد الى أن «كامل» قد حشا الورقة في جيبه، وبعد أيام قليلة كانت في طريقها الى شركة «دافيمكس» داخل إحدى طاولات الشيش بيش التي صدرها كامل الى أوروبا ومن هناك وجدت طريقها الى «الموساد».

---

(١) دائماً الإعلام الصهيوني طالما حاول تصوير الجيوش العربية وخاصة الضباط الكبار بهكذا صور وأوضاع كالمشار إليها ـ الحفلات الماجنة ـ ولكننا نهيب بفهم القارىء الكريم حيث لا تخفى عليه مثل هكذا دعايات طالما أشاعها بيننا الإعلام الصهيوني بطريقة أو بأخرى.

في ١٤ أكتوبر نقل كامل معلومات هامة، سمعها من معزّة حيث قال ان خاله عاد في ١٢ أكتوبر من الاتحاد السوفياتي، حيث شاهد هناك مناورات عسكرية، ووقّع على صفقة لشراء أسراب من طائرات ميج ـ ١٩، و٥٠ دبابة تي ـ ٥٤.

مثلما كان معزّة زهرالدين مصدراً هاماً للمعلومات العسكرية، كان جورج سيف بنفس المستوى بالنسبة للمعلومات السياسية. ولكن صداقة سيف كانت تكلف الخمور والنساء، وهذا ما كان يقلق «كامل» طوال حياته في دمشق. فقد تذكر ملاحظة «سلمان» التي اقتبسها من «إيغال آلون» فيما يتعلق بالنساء، وفي شهادته في المحكمة قال «كامل» انه لم يكن يتعاطى المشروبات الروحية، رغم توفرها بكثرة في بيته. كما اعترف انه نظم في بيته حفلات متعة باشتراك نساء تعرّف عليهن بواسطة جورج سيف والطيار عدنان الجابي ومعين داود الموظف في وزارة السياحة، وقال: كانوا يكشفون وهم سكارى عن كل ما في قلوبهم من أسرار، وذكر بعضاً منها في المحكمة.

أما جورج سيف فقد نفى هذه الأقوال في المحكمة وقال عن «كامل» انه كبير الكذابين والسكارى، وأضاف سيف انه كان يأخذ النساء الى بيت «كامل» ليخفي علاقاته هذه عن زوجته، وان كامل كان يصرّ على التعرف عليهنّ وقضاء وقت معهنّ. وذكر انه أخذ مفتاح البيت من «كامل» أكثر من مرة ليختلي مع فرحة مطرجي سكرتيرة وكيل وزارة الاعلام. وان «كامل» اختلى بها عدة مرات. وقال أيضاً انه عرّف «كامل» على عبلة عمار، طالبة وراقصة، وانهما التقيا أكثر من مرة، وعرّفه على شمس مخانق الممرضة في عيادة

طبيب معروف في دمشق.

وذات يوم، خرج جورج وكامل للنزهة في «بلودان» وهي قرية سياحية جنوب دمشق، ورافقهما التاجر غسان الذكر والصائغ جورج نونو وزوجته سيلفي باشا وعمر الشيخ زميل سيف في الاذاعة السورية وماري الماز وروجيت. وفي الطريق قال غسان الذكر انه تعرف على فتاتين من الأرجنتين من أصل لبناني، هما كارول وكلوديا شرشور واقترح ان يعرفهما على «كامل»، وجورج وعمر الشيخ، ثم أضاف، جميعكم من الأرجنتين وبإمكانكم التحدث معهن بالاسبانية، وذكر ان الفتاتين في طرابلس واتفق على تنظيم اللقاء عندما يعودان الى دمشق.

بعد بضعة أيام وصلت كارول وكلوديا الى دمشق، وقد أعجب جداً بها عمر الشيخ. كانت كلوديا متزوجة ولكنها انفصلت عن زوجها الذي بقي في الأرجنتين، أما كارول فكانت عزباء. قال عمر الشيخ انه يعمل في القسم الاسباني بالاذاعة السورية مما أثار اهتمام كارول التي طلبت أن ينظم لها زيارة للإذاعة للتعرّف على كيفية اعداد البرامج وعلى الفنانين والمذيعين.

في اليوم التالي وصلت كارول وكلوديا الى استوديوهات الاذاعة فعرفهما على جورج سيف ونظم لهما جولة في الاستديوهات كما أرسلتا سلامات الى الأرجنتين عبر الأثير.

أعجب جورج بجمال كارول وكلوديا. اما هما فقالتا انهما لا تفكران بالعودة الى الأرجنتين وانهما تبحثان عن عمل في دمشق. استأجر سيف غرفة لهما في فندق دمشق في ساحة المرجة واقترح

عليهما العمل في الإذاعة ضمن برنامج من كل بستان زهرة على أن يكون عملهما اختيار الأغاني التي يحبها الأرجنتينيون.

لم تكن السهرات التي أحياها أو شارك فيها «كامل أمين ثابت»، ولو لمرة واحدة على حساب عمله كجاسوس اسرائيلي في دمشق. وبالعكس فانه بواسطتها استطاع اكتساب معارف جديدة وبالتالي معلومات جديدة، وهذا زاد ثقته بنفسه. فقد كانت علاقته مع جورج سيف متينة جداً. كما أمضيا معاً وقتاً طويلاً وكانا يتبادلان الحديث مطولاً في شتى المواضيع وخاصة السياسية، حيث كان كامل يساعد جورج سيف في كتابة تحليلاته السياسية الاذاعية. وفي احدى المرات اقترح عليه ان يهاجم جمال عبدالناصر. ولكنه حذّره من شجب فكرة الوحدة لأن هذا يغضب حزب البعث، وقال له، ان البعث مجمّد اليوم، ولكنه قد يصل الى السلطة مستقبلاً.

اقترح سيف على «كامل» ان يعمل معه في الاذاعة قائلاً له: «لدي اقتراح عبقري لك، ان تشترك بشكل دائم في البرامج الإذاعية في القسم الاسباني. فأنت تملك صوتاً إذاعياً، وقدرة عالية على التعبير وتعرف ما يجب وما لا يجب ان تقول». ولم يعطه فرصة للتفكير فسجل بصوته نداء الى المغتربين السوريين في أميركا اللاتينية هذا نصه: «الوطن بحاجة اليكم، ان سوريا تقف وحدها أمام قوى التفرقة العربية، عميلة الامبريالية، وسوريا هي التي تقاتل العدو التوسّعي الذي اغتصب أراضي فلسطين. نعم أيها الأخوة، الوطن بحاجة اليكم، لتساعدوه في محو العار ورفع علم العزّة والقومية العربية».

أبلغ «كامل» تل أبيب هذا. ذهل «دان» واعتبر ان عمل «كامل»

هذا جنون وبلا مسؤولية. وكان يخشى أن يتعرف على صوته معارفه في تل أبيب أو الاسكندرية. ولكن «سلمان» خالفه الرأي، بقوله، أولاً: ان أهالي تل أبيب والاسكندرية لا يستمعون الى اذاعة دمشق الموجّهة الى أميركا اللاتينية وباللغة الاسبانية. وثانياً، لأن «كامل» ترك الاسكندرية قبل خمس سنوات فمن يتذكر صوته، وحتى لو تذكره أحدهم في مصر، فكيف سينقل الخبر الى المخابرات السورية؟ ولكن «سلمان» أرسل في الوقت نفسه برقية الى «إيلي» يأمره فيها بعدم الاشتراك في أي برنامج إذاعي.

كانت ردود الفعل من أميركااللاتينية مؤثرة جداً، فقد بعث مغتربون رسائل الى الإذاعة يسألون فيها «كامل»، كيف عاد الى دمشق، وكيف اندمج في المجتمع، وما هي المشاكل التي واجهته. كما طلب منه سيف أن يشترك بشكل دائم في تقديم البرامج لكنه رفض قائلاً: «لقد قلت كل ما عندي، وإذا توفر شيء جيد فسأبادر بنفسي للإشتراك».

زيارة الحمة

طلب «كامل» القيام برحلة اخرى الى الحمة، فسافر الى هناك برفقة عادل صفدي ووحيد القطب، كان عادل الصفدي برتبة كولونيل في الجيش ثم في الشرطة وله علاقات جيدة مع قيادة الجبهة في القنيطرة. ولهذا لم يكن صعباً عليه الحصول على التصاريح اللاّزمة للقيام بهذه الجولة. جاءت هذه الزيارة في اليوم الذي كان مقرراً ان يقوم قائد الجبهة الكولونيل زياد الحريري بجولة في المنطقة. وقد وصل الى الحمة حين كان «كامل» وأصدقاؤه يتناولون طعام الغداء في غرفة الضباط. وعندما تعرّف على «كامل»، صافحه وقال له «كامل» انه تعرَّف في بيونس آيرس على الملحق العسكري أمين الحافظ، وأعرب عن أسفه لأن ضباطاً مثله أبعدوا عن الوطن لأسباب سياسية. لم يردّ الحريري، ولكن كان واضحاً ان كلمات كهذه انطبعت في ذهنه.

عندما عاد «كامل» الى دمشق، أبلغ «تل أبيب» ان الكولونيل الحريري يضغط من أجل تسخين الجبهة. ولكن رئاسة الأركان لم توافق على ذلك. وبناء على هذه المعلومات، لم تردّ اسرائيل على قيام سوريا بإطلاق النار على الحدود لعدة مرات، واكتفت بإعلان

حالة الطوارىء في قواعد الجيش.

في تلك الفترة توالت احداث درامية، ممثلة في انقلابي ٨ فبراير في العراق و٨ مارس في سوريا، ووصول حزب البعث في البلدين الى السلطة، عقب هذه الأحداث أبلغ «كامل» تل أبيب بالتغييرات التي طرأت اثر الانقلاب على جهاز الحكم في سوريا وخاصة عزل الحريري عن قيادة الجبهة وتعيينه ملحقاً عسكرياً في بغداد.

الحريري يعد لانقلاب

كان الحريري قد قرّر العمل على الاطاحة بالحكومة السورية برئاسة خالد العظم. وجنّد لأجل ذلك الكولونيل غسان حدث، قائد سلاح الصحراء، ورئيس شعبة الاستخبارات الكولونيل رشيد قطيني، وقائد وحدة المدرعات في حمص الكولونيل محمد الصوفي، وكان من المقرر القيام بالحركة الانقلابية في ٧ مارس، ولكن في اللحظة الأخيرة انسحب قطيني وصوفي، فتوجه الحريري الى حزب البعث ومؤيديه في الجيش، وخصوصاً الميجور سليم حاطوم الذي استولى على الإذاعة والتلفزيون، وأعلن عن الانقلاب باسم مجلس الثورة، وأطلق شعار البعث «وحدة، حرية، اشتراكية». وشكل صلاح البيطار حكومة جديدة مؤلفة من عشرين وزيراً بين ٩ من البعث، وعيِّن الكولونيل الحريري رئيساً للأركان وعين رشيد قطيني نائباً له. واستدعى البيطار الكولونيل أمين الحافظ من الأرجنتين وعينه وزيراً للداخلية، وعيَّن محمد صوفي وزيراً للدفاع، وبالمقابل أنشأ مجلس الثورة المؤلف من عشرين عضواً بينهم عشرة من العسكريين وعشرة من المدنيين وعلى رأسه عين لؤي الأتاسي الذي عمل في السابق نائباً للملحق العسكري في القاهرة، وقائداً لوحدة سورية في الاسكندرية، وملحقاً عسكرياً في موسكو،

وعيِّن الدكتور نورالدين الأتاسي رئيساً للجمهورية خلفاً لناظم القدسي.

كان «كامل» يعلم بكل هذه التطورات أولاً بأول من معزّة زهرالدين وجورج سيف، وكان يرسلها بالتفصيل الى «تل أبيب».

ناطق بلسان البعث

في نهاية مارس «آذار» ١٩٦٣، ترك إيلي كوهين دمشق وعاد في إجازة «لاسرائيل». وهناك أمضى أسبوعاً كاملاً في اعداد تقرير مفصّل عن المعلومات العديدة التي يحملها من دمشق. بعدها تفرّغ لقضاء بعض الوقت مع زوجته وطفلتيه وأبناء عائلته، كان «أفرايم» هو الوحيد الذي يعرف عن مهمّة أخيه، ولكن شكوكاً أخذت تراود زوجته «ناديا» عندما لاحظت انه كثيراً ما يصغي للإذاعات العربية، وخاصة إذاعة دمشق، كما كان يتتبع من خلال نشرات الأخبار كل ما يدور في سوريا. ففي ٢٧ ابريل ١٩٦٣ قرر مجلس الثورة اجراء تصفيات داخل الجيش، حيث عزل ٤٧ ضابطاً وعيَّن بدلاً منهم ضباطاً من حزب البعث. وفي ٦ مايو عُزل وزير الدفاع الجنرال محمد صوفي ونائبه رئيس الأركان رشيد قطيني. وعين الكولونيل زياد الحريري وزيراً للدفاع. وبعد استقالة الوزراء الناصريين استقالت الحكومة تعبيراً عن تذمّر الناصريين، وفي ٨ مايو وقعت اضطرابات في حلب ودمشق وكان للفلسطينيين دورهم الهام فيها.

كانت تلك فرصة مواتية لأمين الحافظ كحاكم عسكري عام، فقد عمل بشدة حيث ضرب بيد من حديد نشاطات كل من قاموا

بإضرابات أو معارضة سياسية للدولة. وفي ١٣ مايو شكّل البيطار حكومة جديدة عيّن فيها أمين الحافظ نائباً له ووزيراً للداخلية، كما بقي سامي الجندي صديق «إيلي كوهين» وزيراً للاعلام. وكانت تلك فرصة مناسبة ليعود إيلي كوهين الى دمشق. وكان من تعليمات «سلمان» له أن لا ينضم الى حزب البعث كي لا تطاله التصفيات حينما يهزم التيار الذي ينتمي اليه. كما أمره بأن لا يتنازل عن جواز سفره الأرجنتيني كي يضمن حرية مغادرة البلاد وقتما يشاء وان يبث رسائل قصيرة وان يبدل مواعيد الارسال.

سافر الى دمشق في ٣٠ مايو، وكان بانتظاره في المطار صديقه الطيار الذي اهتم بأن يتجاوز الجمارك بدون تفتيش، واما كامل فقد أثبت انه لا ينسى أصدقاءه فقد أحضر له منديلاً جميلاً من الحرير وفيما بعد أعطاه مبلغ ٤٠٠ ليرة سورية. وفي الليلة الأولى حدّثه صديقاه عدنان وسيف عن آخر التطورات في دمشق. سأل عدنان عن صديقه معزّة زهرالدين فقيل له انه أعيد الى الجيش وعين في منصب قيادي في منطقة إدلب. لم يغتبط «كامل» لابتعاد مصدر معلوماته العسكرية الأساسي، ولكنه حافظ على الاتصال به حيث زاره في إدلب ثلاث مرات، وأخذ له الهدايا ونام في بيته، كما زار معزّة «كامل» أيضاً ونام في بيته. وسافرا معاً ذات مرة في جولة على الحدود مع «إسرائيل» من القنيطرة وحتى الحمة. وعندما كانا في مرتفع يطل على «عين جيب» اعتقل الجنود السوريون شابان وفتاة اسرائيليين، أحضرهم معزّة الى قيادة الجبهة في القنيطرة، وبعد ان أثنى عليه الجنرال الحريري وبّخه لأنه دخل منطقة عسكرية بدون رخصة.

بعد عودته الى دمشق، حاول «كامل» تطوير علاقاته مع ضباط كبار، وقد عرّفه عدنان الجابي على بعض الضباط في دمشق. ولكن بعد ابعاد معزّة فقد ظل جورج سيف هو المصدر السياسي الأساسي والصديق الأقرب الى ايلي كوهين. وبعد أيام من وصوله أرسل «كامل» تقريراً مفصلاً الى بروكسل حول الوضع السياسي كما حلَّل سيف. وأرسله بواسطة مضيفة إيطالية أصبحت فيما بعد زوجة الكولونيل الضلّلي رئيس المحكمة العسكرية الخاصة التي حاكمت إيلي لاحقاً.

خلال الأسابيع التالية قدّم أمين الحافظ خدمة كبيرة للجاسوس الاسرائيلي. ففي احدى المناسبات عرفه على رئيس الحكومة صلاح البيطار وعلى بعض الوزراء وكبار ضباط الجيش بمن فيهم رئيس الأركان زياد الحريري والميجور سليم حاطوم ورئيس شعبة الاستخبارات الكولونيل احمد سويداني، وقد أعجب سليم حاطوم بشخصية إيلي، اما احمد سويداني فقد تحفظ منه.

لقد استفاد ايلي كوهين كثيراً من هذه العلاقة مع كبار الشخصيات السياسية والعسكرية، وأصبح سليم حاطوم مصدر معلوماته العسكرية بدلاً من معزّة زهرالدين، حيث حصل على معلومات وافية عن الجيش والمشاكل التي تواجهه وعلاقة الجيش بالحكومة، وتوثّقت علاقته «بسليم حاطوم الذي كان يطلب منه مفاتيح بيته ليقضي ليلة فيه مع واحدة من صديقاته الكثيرات». ودعاه سليم حاطوم الى نادي الضباط التابع لفرقة الكوماندوس التي كان يقودها كما أخذه لمشاهدة تمارين عسكرية في القنيطرة. وتجوّل معه على طول الحدود من البانياس وحتى الحمة حيث شرح له عن تمركز

القوات السورية على الطريقة السوفياتية. وتحدّث باعتزاز عن قدرة جنوده، كما سمح له بالتقاط صور من هضبة الجولان وحتى بحيرة طبريّا.

في ٢٣ يونيو سافر الكولونيل زياد الحريري الى الجزائر للاشتراك في احتفالات عيد الاستقلال، وكان سفره فرصة استغلّها البعثيون لعزل ثلاثين ضابطاً كانوا مقربين منه. وعندما عاد الى دمشق استشاط غضباً وطلب القيام بزيارة الى قيادة القنيطرة. ولكن مجلس الثورة حظر عليه ذلك، وفي ٨ يوليو عُزل من منصبه كوزير دفاع ورئيس أركان ونفيَ الى أوروبا وعيِّن أمين الحافظ وزيراً للدفاع ورئيساً للأركان. وفي ١٨ يوليو حاول الناصريون القيام بانقلاب عسكري في وضح النهار، وكان سويداني قد أبلغ أمين الحافظ بأن الناصريين يعدون لهذا الانقلاب الذي يقوده جاسم علوان فقمع الحافظ المحاولة مستخدماً سلاح الطيران والدبابات وفرقة الكوماندوس التي يقودها سليم حاطوم. وقد قتل عدداً من الناصريين واما علوان ورشيد قطيني فقد هربا الى لبنان ومنها الى القاهرة، وقدَّم لؤي الأتاسي استقالته، وفي ٢٧ يوليو أصبح أمين الحافظ رئيساً لمجلس الثورة.

أثنى «كامل أمين ثابت» على أمين الحافظ بقوله «لا شك اننا لقّنا الدكتاتور (المصري) درساً. ولن يتدخل في شؤوننا بعد اليوم». هذه الكلمات عمّقت ثقة مسؤولي الحزب به وأصبحوا يصارحونه بكل شيء.

بعد أن أخذه الكولونيل حاطوم الى قواعد الكوماندوس في القنيطرة، قرر الطيّار عدنان الجابي أخذه الى قواعد سلاح الطيران،

حيث زار بعضها وشاهد «النسور» يتدربون وتلقّى معلومات عن عدد الطائرات المقاتلة وعن مستوى التدريب وقدرات الطيارين والتقط صوراً. . وكل هذه نقلت بالطبع الى «تل أبيب».

كما نظّم له صديقه الكولونيل خليل سافور المسؤول عن الوقود في الجيش جولة في مخازن الوقود في اللاذقية، وشاهد هناك وسائل الدفاع عنها. وبعدها أخذه معه الى بيروت لشراء معدّات صغيرة للجيش ثم الى طرابلس وعادوا الى دمشق[1].

(١) هذه التفاصيل التي يذكرها المؤلف هي كما مرّ معنا سابقاً كلامٌ لا دليل عليه و«كوهين» نفسه لم يعترف به في المحكمة فمن أين حصل المؤلف على هكذا معلومات لا ندري وهو نفسه لم يذكر المصدر لذا لا يمكننا إلاّ وضعها في دائرة الإعلام الصهيوني الذي كما علمنا ونعلم الآن لا يترك فرصة تسنح له إلاّ وينتهزها لتصوير ان الجيوش العربية وضباطها من السهل جداً اختراقها وعند أول لقاء يفض لك الضابط كل ما في حقيبته من أسرار وهذا خلاف المنطق العقلاني عند البشر العاديين فكيف لو كانوا ضباطاً وبرتبٍ عالية لذا فإننا نعتبر هذا الكلام هو جزء من الحرب النفسية والمعنوية التي يخوضها ضدنا العدو منذ قام كيانه الغاصب.

الناشر

اشعال الحدود

في مطلع «أغسطس» نقل «كامل» الى «اسرائيل» خبراً هاماً:
«ان سوريا سوف تشعل الوضع على الحدود. فقد سمع من سليم حاطوم، ان سوريا سوف تلقن عبدالناصر درساً في الشجاعة، وليس القصد اعلان الحرب على «إسرائيل»، وانما قيام سوريا ببعض العمليات على الحدود لإحراج عبدالناصر، وبهذا تحقق ما تهدف إليه».

في ١٨ أغسطس رأى «كامل» من شباك غرفته حركة غير عادية عند رئاسة الأركان، حيث دخلت وخرجت سيارات عديدة الى هناك، كما ان أضواء البناية ظلت مشتعلة طوال الليل. وبعد يومين اختطف ستة يهود بالقرب من بحيرة طبريّا، وأطلقت النار على مزارعين إسرائيليين، وفي ٢٠ أغسطس أطلقت نيران سورية على مستوطنة الماجور شمال طبريّا وقتل فيها مزارعون ووقعت معركة جوية قصيرة بين طائرتي ميراج اسرائيليتين وست طائرات ميج ١٧ سورية. وأصيبت طائرة سورية، ولم تردّ اسرائيل على هذه الأحداث واكتفت بالشكوى الى مجلس الأمن.

وفي ٦ سبتمبر افتتح في دمشق المؤتمر السادس لحزب البعث

باشتراك مندوبي الأقطار الأربعة «سوريا، العراق، الأردن ولبنان». وقد دعي «كامل» للحضور بواسطة جورج سيف ومحمد حمزة حيث استطاع الحصول على الاقتراحات التي قدّمت الى المؤتمر والتي دفعت الحزب نحو خط أكثر يسارية.

في هذا المؤتمر تركّزت الانتقادات ضد مؤسسي الحزب ميشيل عفلق وصلاح البيطار لأنهما لم يقدّما نقداً ذاتياً، وتزعزعت مكانتهما في مؤتمر الحزب، كما برزت في الوثيقة النظرية للحزب مفاهيم ماركسية واضحة، وقد نشرت مقررات المؤتمر في ٢٧ أكتوبر ١٩٦٣ والتي دعت للوحدة مع العراق وتضمّنت هجوماً على عبدالناصر.

أما القرار الذي لفت انتباه «كامل» فهو ما يتعلق بالمشروع القطري «لاسرائيل» حيث اعتبر المؤتمر هذا المشروع خطراً على الدول العربية وأكد ان حزب البعث سيخوض معركة ضد «اسرائيل». وجاء في حيثيّات القرار التي وزّعت على أعضاء البعث وحدهم، ان الهدف هو جر الدول العربية الى مواجهة مع «إسرائيل»، وبسرعة، حيث سيكون الانتصار على «إسرائيل» مستقبلاً أكثر صعوبة.

في الليلة ذاتها نقل «كامل» هذه المعلومات الى «إسرائيل» والتي يستشفّ منها ان سوريا تعد لعمل عسكري ضد «إسرائيل».

في أوائل نوفمبر، ارتكب «كامل» خطأً أدى لاكتشاف مهمته بين أفراد عائلته في «اسرائيل». فقد نقل من دمشق الى «تل أبيب» البيان التالي: «أبلغوا زوجتي ناديا أنني سأعود الى البيت قبل نهاية العام». ففي مختلف البرقيات السابقة لم يذكر أي اسم من أسماء

العائلة. فقد تلقّى البرقية الأخيرة أخوه «موريس» الذي بدأ العمل في الوحدة المسؤولة عن إيلي كوهين والذي لم يكن يعرف ان أخاه يعمل في دمشق.

كان «موريس» أصغر من إيلي كوهين بثلاث سنوات، وقد عمل في جهاز المخابرات وتسلّم بعض البرقيات التي أرسلها «كامل»، ولكنه لم يعرف مرسلها، ولكن بعد البرقية الأخيرة راود موريس الشك في هوية مرسل هذه البرقيات بل واتضح له ان «إيلي» هو مرسلها.

في نهاية نوفمبر تسلّم موريس برقية طالب فيها «كامل» ان يبلغوا «ناديا» بأنه سيعود قبل أواخر العام. وعندها تأكد من هوية «كامل». ولذلك رأى ان من واجبه ابلاغ المسؤولين عنه بذلك، فاستدعاه «دان» وقال له انه مخطىء وان اسم «ناديا» الذي ورد في البرقية هو كلمة سر. وحاول بشتى الوسائل أن ينكر ما يعرفه «موريس»، لكن الأخير لم يقتنع، فأمره «دان» بأن لا يفصح عن هوية أخيه لا لأمه ولا لزوجته.

في منتصف ديسمبر غادر «كامل» دمشق في طريقه الى أوروبا ثم الى الأرجنتين. وقال لأصدقائه في دمشق، انه بعد وصول البعث الى السلطة، فانه سيعمل على إقناع المغتربين بالعودة الى الوطن. وسيشجّع استثمار الأموال في سوريا.

الحرب على منابع نهر الأردن

بعد وصول إيلي كوهين الى «إسرائيل» طلب منه أن يقدِّم تقريراً عن عمله في الستة أشهر الماضية، كما دار الحديث معه حول مقررات مؤتمر البعث السادس بشأن تحويل مجرى نهر الأردن وسئل كثيراً فيما اذا كانت لدى سوريا نية حقيقية لتحويل مياه النهر، وعن موقف العرب من ذلك. وهل ما زالت سوريا تواصل استعداداتها للحرب وما هي قدرة حزب البعث على توحيد الشعب؟ وقد أجاب إيلي على هذه الأسئلة بدقة وتفصيل. وأكد ان حزب البعث يقف من وراء هذا القرار. وان قادة البعث مصمِّمون على الاثبات للعالم العربي «أنهم وحدهم المستعدون لمواجهة «إسرائيل»، في حين أن عبدالناصر قصّر بحق القضية العربية».

كان إيلي في «إسرائيل» عندما عقد مؤتمر القمة العربي الأول في ١٣/١/١٩٦٤، باشتراك ثلاثة ملوك وسبعة رؤساء جمهورية وأميرين ورئيس حكومة واحد، لبحث الوسائل الواجب اتخاذها ضد مشروع المياه الاسرائيلي. وكان عقد المؤتمر انجازاً هاماً لعبدالناصر، حيث استطاع عزل الرئيس السوري أمين الحافظ داخل المؤتمر، وبدلاً من الاستعداد لحرب شاملة كما اقترحت سوريا أقر برنامج مصري من ثلاثة بنود:

(أ) تحويل مياه الحاصباني في لبنان والبانياس في سوريا. ولأجل ذلك أقيم جهاز مركزي وهيئات تنفيذية قطرية وألقيت على الدول العربية مسؤولية تمويل هذين المشروعين وذلك بمبلغ ٦,٥ ملايين جنيه استرليني، وفقاً لنسبة اشتراك كل دولة في ميزانية الجامعة العربية.

(ب) تشكيل قيادة عربية مشتركة برئاسة الجنرال المصري علي عامر، دفاعاً عن أعمال التحويل، ولأجل ذلك تقرر إقامة صندوق للتسليح يرصد له ١٥٠ مليون جنيه استرليني باشتراك الدول العربية بنسبة ١٥ مليون استرليني سنوياً خلال السنوات العشر التي تعقب المؤتمر.

(جـ) بلورة الهوية الفلسطينية بإقامة منظمة التحرير الفلسطينية. ولأجل الدفاع عن الكيان الفلسطيني، فلا بد من تشكيل وحدات فلسطينية مقاتلة في إطار جيش التحرير الفلسطيني.

استقبلت «اسرائيل» قرارات القمة العربية بارتياح. لكنها اعتبرت هذه القرارات بمثابة تحديات وتهديدات على المدى البعيد وان كانت لا تحوي مخاطر الحرب المباشرة. كما ان تحويل العرب لمياه النهر يتطلب موقفاً اسرائيلياً موازياً، وعليه فان هذا التطور عزّز وضاعف سباق التسلح في الشرق الأوسط.

وقد أوضح موقف «اسرائيل» رئيس وزرائها آنذاك «ليفي أشكول» في خطاب ألقاه في الكنيست يوم ١٩٦٤/١/٢٠ حيث قال: ستعارض «اسرائيل» أية خطوات منفردة وغير شرعية من قبل الدول العربية. وستعمل للدفاع عن حقوقها الحيوية. ستضخّ

«إسرائيل» مياه بحيرة طبريّا، وستأخذ الكمية التي أقرت لها بموجب مشروع جونسون بشكل كامل.

في منتصف فبراير سافر ايلي الى أوروبا في طريقه الى الأرجنتين، وفي باريس، تسلم جواز سفره الأرجنتيني وأعاد الى أحد ضباط الارتباط جواز سفره «الاسرائيلي». وفي اليوم التالي وصل الى بيونس آيرس. فوجد ان كل شيء فيها كما هو لم يتغير خلال السنتين الماضيتين، كما ان الجالية السورية ـ اللبنانية مارست حياتها كما كانت سابقاً.

قام «كامل أمين ثابت» بزيارة صحيفة «العلم العربي» ونقل لـ ـ عبداللطيف الخشن «رئيس تحريرها» تحيات حارة من ابنه كمال ومن أبناء عائلته. وحدثه مطولاً عن دمشق، وعن التطورات التي حصلت منذ صعود البعث الى سدة الحكم. وفي بيونس آيرس تسلم رسالة من صديقه جورج سيف يطلب منه إرسال مفتاح شقته لكي يمضي فيها أوقات متعة مع صديقاته. ولكنه تجاهل هذا الطلب، وفي مطلع مارس (آذار) عاد الى باريس وبعد أسبوع سافر الى بروكسل في طريقه الى دمشق. كان ذلك في ٨ مارس، وعندما وصل المطار كان بانتظاره جورج سيف وكمال الخشن وماري الماز وروجيت. وفي المساء تناولوا طعام العشاء، ثم حدثه سيف عن مختلف التطورات الأخيرة في دمشق، فقال له ان مكانة عفلق والبيطار قد اهتزت وتعززت مواقع الضباط اليساريين بقيادة صلاح جديد الذي عين رئيساً لأركان الجيش، ولكن الغليان الداخلي استمر، كما أن تأميم البنوك أدى الى تقليص القروض وتجميد النشاط الاقتصادي، كما يعلن في حمص وحماه بين وقت وآخر عن

اضرابات. وفي بانياس، وقعت صدامات كثيرة وفي مختلف هذه الأحداث تدخل الجيش ومنع انتشار الاضطرابات، وكان سيف قد جاء الى حفلة العشاء برفقة فرحة مطرجي سكرتيرة وكيل وزارة الاعلام.

بعد بضعة أيام من وصوله الى دمشق شرع «كامل» في تجديد علاقاته بأصدقائه المقربين، وكان من أوائل من التقاهم الميجور سليم حاطوم، الذي طلب منه مفتاح شقته لقضاء ليلة مع مطربة معروفة جاءت من بيروت، وافق «كامل» بالطبع وبالمقابل دعاه سليم حاطوم لتناول طعام العشاء في نادي الضباط. وخلالها التقط منه «كامل» خبراً ذا أهمية عالية، فقد أعدت رئاسة الأركان مشروعاً للدفاع عن مخطط التحويل، وضمن ذلك المشروع الإغارة على طبريا. ولولا خوف عفلق والبيطار لكانت طبريّا قد قصفت.

نقل «كامل» الخبر الى «إسرائيل»، ولكن لكي يتأكد من حقيقة الوضع طلب القيام بجولة على الحدود الاسرائيلية ـ السورية ومنطقة الحمة. وقد قام بالجولة فعلاً برفقة «سليمان رجولة» عضو جهاز الاستخبارات السورية وصديقه وحيد القطب، وتبين لكامل انه لا توجد استعدادات للحرب، وبعد أن شاهد تمرينات سلاح المدرعات قرب القنيطرة عاد الى دمشق في ساعات المساء[1].

في ٥ نيسان، اعتقل طالب جامعي في مدينة حماة بعد أن مسح

---

(١) وهكذا وكما تقدم معنا يحاول الكاتب أن يصوّر للقارىء أن «إيلي كوهين» كان الجميع رهن إشارته ما أن يطلب القيام بجولة وعلى الحدود والخطوط الأمامية للجبهة ما أن يطلب حتى يُلبّى وكأن الذهاب الى الجبهة هو بكبسة زر فإن هذا المنطق واضح وضوح الشمس انه منطق إنشاء صهيوني وهو ضمن دائرة الحرب النفسية ليس إلاّ..

عن اللوح شعار حزب البعث الذي كتبه أحد المعلمين. وذلك ان أهالي حماه المتحفظين والمتدينين لم يتجاوبوا مع الطابع الاشتراكي لحزب البعث، ولكن اعتقال الطالب كان الشرارة التي أشعلت اللهب، فقد تظاهر الطلاب في الشوارع وأضرب التجار وندد الأئمة بحزب البعث وتحوّلت هذه الأحداث الى شبه تمرد مدني. آنذاك، توجه أمين الحافظ الى حماه وطلب من رجال الدين تهدئة الوضع ولكن جهوده باءت بالفشل. وفي ١١/ ٤ قتل طالب أثناء المظاهرات وفي اليوم التالي أعلن الاضراب الشامل في المدينة ودعا رجال الدين الى الأخذ بالثأر، وفي ١٤/ ٤ تفجر تمرّد علني وقمع على أيدي الحرس الوطني بقيادة الجنرال محمد عبيد. فقتل عشرات المواطنين وجرح المئات، وقد أدى هذا التمرد الى اضطرابات في حمص، فقام الجيش أيضاً بقمعها ولكنها امتدت حتى دمشق.

في ٢٥ نيسان، أعلن أمين الحافظ الدستور السوري الجديد، وقد جاء في بند تعريف الجمهورية السورية «أن القرآن هو أحد مصادر السلطة في الدولة، ولكنه ليس المصدر الوحيد». وكان هذا تعديلاً في الدستور، أبرز الطابع الاشتراكي العلماني للنظام. وقد ردّ رجال الدين على هذا التعديل بأن دعوا الجماهير للتظاهر في الشوارع واعلان الاضراب في دمشق، وقد استمرت هذه الحالة حتى ٤ أيار، الى أن لجأ أمين الحافظ الى الجيش ثانية لقمع التمرّد. حيث فرقت قوات الحرس القومي المتظاهرين بالعنف، وأجبروا التجار على فتح الحوانيت ومنعوا التحريض في الجامعات.

أرسل «كامل» تقارير مفصلة عن هذه الأحداث، وتوقعاته لما سيحدث في المستقبل، ففي ١٤/ ٤/ ١٩٦٤ أرسل برقية رقم (٨)

واقتبس فيها أقوال جلال فاروق رئيس التحرير الأسبق لجريدة الثورة الناطقة بلسان حزب البعث، وفيها يقول: «ان وزير الاعلام سامي الجندي، سوف يُفصل من الحكومة ويعيَّن سفيراً في باريس». وفي مطلع أيار أعلن الرئيس أمين الحافظ عن مجلس رئاسة جديد، وكان من بين أعضائه صلاح البيطار الذي استمر في منصبه كرئيس للحكومة، وعين نائباً لرئيس الجمهورية، وسافر سامي الجندي الى باريس كما كان متوقعاً.

في ٨ أيار، أقام الرئيس أمين الحافظ، احتفالاً في مقر المغتربين بمناسبة تشكيل الحكومة الجديدة وتشكيل مجلس الرئاسة، حيث حضرته كل الشخصيات البارزة وكان «كامل» بين المدعوين، حيث صافح رئيس الحكومة صلاح البيطار، وأثنى على صلاح جديد ونجاحه في خلق جو اشتراكي في الجيش، كما توقف لبضعة دقائق مع أمين الحافظ، وكان بين المدعوين الكولونيل أحمد سويداني رئيس شعبة الاستخبارات الذي لم يكترث لوجود «كامل» ولم يهتم به.

وقد ألقى أمين الحافظ كلمة حماسية حول تحويل مياه نهر الأردن، وعقب فيها على تنفيذ مشروع المياه القطري في «اسرائيل» قائلاً: ان الحرب أسرع وأقل كلفة لاحباط هذا المشروع ودعا الجماهير للمساهمة في هذا النضال من أجل جر عبدالناصر لحرب مع «اسرائيل» أو اظهار خوفه منها.

وفي اليوم التالي، كان بيد «الموساد الاسرائيلي» كل من نص الخطاب وكل ما دار في الاحتفال، اضافة الى تحليل للوضع يؤكد أن سوريا لم تتخل عن الحل العسكري وأعمال التحويل ولو أدى ذلك الى عمليات عسكرية على الحدود.

اجتمع «كامل» بفوزي الخباز رئيس قسم الأشغال العامة والمسؤول عن مشروع التحويل واستمع منه عن المخطط وكشف له الخباز ان العمل سيبدأ خلال شهرين أو ثلاثة، ودعاه لزيارته في مكتبه للاستماع الى تفاصيل أكثر، ولكن «كامل» لم يكتفِ بذلك، ولكي يبعد الشبهات عن نفسه، أقنع صديقه جورج سيف بأن يجري مقابلة مع الخباز للاذاعة الاسبانية لاطلاع الجالية السورية في أميركا اللاتينية على المشروع، وبالفعل، أجرى سيف المقابلة المطلوبة وبالطبع حصل «كامل» على تسجيل للمقابلة بما في ذلك أقوال الخباز التي «ليست للنشر» وبعد أن توفرت لديه جميع المعلومات قرر القيام بجولة في المنطقة، واستطاع الحصول على تصريح بواسطة المحامي ميشيل خوري. وهناك حدثه المهندسون ان المقاول «محسن بن لادن» وهو سعودي هو الذي سينفذ المشروع، وسيباشر العمل فيه قريباً، وستشرف على العمل شركة أنيرغو بروتيت اليوغسلافية، والتي كانت قد نفذت مشروعات مشابهة في الدول العربية.

في الوقت نفسه، أعلن في دمشق في ٨ مايو عن إقامة منظمة «فتح» بقيادة عرفات وبدعم المخابرات السورية، وكان شعار عرفات في نوادي المثقفين ومخيمات اللاجئين «فلسطين للفلسطينيين». وفي مؤتمر القمة الثاني الذي عقد في سبتمبر ١٩٦٤، كان موضوع تحويل مياه نهر الأردن وهو أهم بنود جدول أعمال المؤتمر وفيه اتخذ القرار بالاسراع بعملية التحويل وخصصت الميزانيات المناسبة لذلك. وفقاً للمخطّط فان سوريا كانت ستحفر قناة بطول ٧٠ كلم، من البانياس وحتى نهر اليرموك على حدود سوريا ـ الأردن ـ واسرائيل. وكان مقرراً ان تجري فيها كمية مياه تقدر بـ١١٠ ملايين

متر مكعب من مياه البانياس وفائض مياه الحاصباني في لبنان.

سافر «كامل» الى ادلب لزيارة صديقه معزّة زهرالدين برفقة فؤاد نعمان أحد أصدقاء ماجد شيخ الأرض. وأمضى في بيت معزة ثلاثة أيام، ووصل حتى الحدود التركية، وهناك التقى «كامل» بـ«الراعي التركي» واسمه عباس آية الله الذي تبيَّن فيما بعد أنه كان جاسوساً تركياً، كان يدخل مع قطيعه الى الأراضي السورية ويلتقط الصور على الحدود.

في تلك الأيام، فقد «كامل» أحد أصدقائه الذي كان أحد مصادره للمعلومات العسكرية وهو اللفتينانت عدنان الجابي، الذي قتل أثناء التدريب على قيادة طائرة الميج ٢١، ودفن في دمشق وشيَّع جثمانه ضباط سلاح الجو السوري. وكان «كامل» بين المشيعين وهناك عرف أن سرباً من طائرات الميج ٢١، حوّل الى طائرات مقاتلة يتدرب عليها الطيارون استعداداً للدفاع عن عملية تحويل البانياس.

نقل «كامل» هذه المعلومات الى «اسرائيل»، وكان قد بعث قبلها أكثر من برقية في الفترة ما بين ٨/ ٥ وحتى أواخر آب، وقد استمرت كل برقية أكثر من تسع دقائق الأمر الذي جعل المسؤولين في «تل أبيب» يطلقون عليها لقب «يوميات دمشق» أو «جريدة البعث».

بعد مؤتمر القمة الثانية لاحظ «كامل» ان تصريحات قادة سوريا أصبحت معتدلة وحذرة أكثر، كما أصبحت علاقة الضباط معه أكثر جفافاً، فبداية عمليات التحويل ألزمتهم بزيادة المراقبة على الحدود الاسرائيلية، وبدأ جهاز المخابرات السوري حملة تفتيش عن جواسيس. لم يعرف «كامل» عن ذلك، ولم يخف عن أصدقائه انه قرر السفر الى أوروبا لقضاء أعمال تجارية، وأعرب عن أمله في

أن يتمكن من العودة الى دمشق، في الخريف المقبل، ولو عرف ان المخابرات تتابعه لتمكّن من مغادرة سوريا وإنقاذ نفسه. لكن «كامل» لم يشك بشيء، وفي مطلع أكتوبر ١٩٦٤، غادر دمشق الى باريس في طريقه الى «إسرائيل». كانت زوجته «ناديا» في أشهر الحمل الأخيرة، وقد أراد أن يكون الى جانبها أثناء الولادة ولذا أنهى ترتيباته في باريس، وعندما التقى مع زوجته في مطار «اللد» كان لقاؤه مثيراً للغاية، فقد همست في أذنه بأنها تعرف أن مولودها الجديد سيكون طفلاً ذكراً، وتقترح أن يسمي شاؤول باسم والد إيلي الذي توفي في نوفمبر ١٩٦١، وهكذا، بكى إيلي تأثراً وفرحاً لهذا النبأ. ولكنها أدركت التغيير الذي طرأ على زوجها حيث لاحظت انه أقل مرحاً، بل وانه أصبح أكثر توتراً وقلقاً وتقلباً وفاقداً لشخصيته السابقة التي عرفته من خلالها.

وذات يوم رأته يرتّب خزانته ولما سألته لماذا يفعل ذلك، قال لها لكي يفسح مكاناً أكبر لثيابها وثياب أولادها.

بعد أيام قليلة، استدعي الى المكتب لتقديم المعلومات التي يحملها، والتي كانت هائلة وضرورية للعملية العسكرية التي خططتها «اسرائيل» لضرب مشروع تحويل المياه. وقد تحدث إيلي عن الحماية التي يقدمها «البعث» لمنظمة «فتح» وعن النية في اشراك الفلسطينيين في «حرب المياه» ضد «إسرائيل».

في ١٠ أكتوبر ألقي القبض على شابين فلسطينيين في «اسرائيل» كانا يتجسسان لصالح المخابرات السورية وحكم على واحد منهما بالسجن لمدة عشر سنوات. وفي ٦ نوفمبر اعتقل فلسطينيان آخران بتهمة التجسس وحكما بالسجن أيضاً. حدّث إيلي

المسؤولين عنه وخصوصاً «دان» و«سلمان» عن مخاوفه من الكولونيل سويداني وعن غيرة الكولونيل سافور من علاقة «كامل» مع ماري الماز، وانه من المحتمل أن يكون سافور قد حدّث سويداني عن حياته والحفلات التي نظمها باشتراك شخصيات كثيرة. ولكن هذه الأمور عادية جداً في دمشق. ولو كانت هناك شكوك حوله لما سمح له بمغادرة دمشق، بل، من يستطيع أو يسمح لنفسه بالشك في الصديق الشخصي للرئيس أمين الحافظ؟؟؟

بعد ولادة ابنه شاؤول ازداد ضغط العائلة عليه كي لا يعود الى سوريا ثانية. وخصوصاً من زوجته «ناديا» التي كثيراً ما كانت تستيقظ من النوم مذعورة بأحلام مزعجة حول مصير زوجها. ولذا، حاولت اقناعه بالبقاء، حاول الشيء نفسه أخاه «أفرايم» الذي كان يعتقد ان إيلي قدّم ما يكفي «لأمن الدولة»، وان الوقت قد حان ليقدم لعائلته بعد أن أصبح أباً لثلاثة أولاد. ولكن إيلي رد عليهم بتقديم ذرائع أيديولوجية لضرورة عودته، بقوله:«لا يجوز في هذه اللحظة العصيبة أن يتخلى عن مهمته. وهكذا لم يقتنع إيلي رغم توسّلات كل أبناء العائلة».

في ١٣ نوفمبر، قامت «اسرائيل» بعملية عسكرية استخدمت فيها الدبابات والطائرات ضد مواقع عسكرية سورية، وعليه، فان توتر الأوضاع على الحدود دفع الأوساط العسكرية الاسرائيلية للمطالبة بمعلومات عن الوضع داخل سوريا.

وعليه، عاد إيلي بعد أيام الى دمشق، وهو يحمل تعليمات جديدة، حول أسلوب الاتصال «بإسرائيل» ومنها أن لا يتصل أكثر من مرة في الأسبوع كما طلب منه تغيير مواعيد البث، وان يجعل رسائله أقصر.

المحاكمة، ومحاولات الإنقاذ

في ٢٦ نوفمبر، وصل «كامل» الى دمشق، كان الطقس بارداً وماطراً، وفي المطار انتظره فقط صديقه جورج سيف، وأثناء تناول طعام العشاء في «النادي العصري» حدّث جورج صديقه «كامل» عن آخر التطورات التي حصلت في دمشق، وأهمها تقوية الجناح العسكري في الحزب على حساب الجناح السياسي. فقد اتهم الضباط الشباب صلاح البيطار بالانحراف عن المبادىء الاشتراكية واتباع سياسة اقتصادية يمينية. كان على أمين الحافظ أن يختار بين الوقوف الى جانب البيطار أو ضباط الجيش، فاختار الوقوف الى جانب صلاح جديد وقائد سلاح الطيران حافظ الأسد، وعلى أثر هذه التطورات والاستقطابات سقطت حكومة صلاح البيطار، وعين أمين الحافظ رئيساً للحكومة الى جانب كل مهامه الاخرى، وأما صلاح جديد فقد عُيِّن في مجلس الرئاسة وكان الشخصية الأبرز فيها. وعين الجنرال ممدوح جابر وزيراً للدفاع. وعاد ميشيل عفلق من منفاه في ألمانيا، على أمل أن يساعد البيطار لمواجهة قوة صلاح جديد الصاعدة.

وسط هذه التغييرات التي قوّت الجناح اليساري في حزب البعث، سارعت سوريا في عملية تحويل مياه البانياس ورفع شعار البعث الداعي الى «حرب التحرير الشعبية» الذي أصبح من صلب استراتيجية البعث.

كل هذه التطورات، دفعت إيلي كوهين لمباشرة عمله منذ اليوم التالي لوصوله الى دمشق. فقد أبلغه سليم حاطوم أن جيوش مصر والأردن سوف تتحرك باتجاه الحدود السورية ـ الاسرائيلية، لردع «اسرائيل» عن القيام بعملية عسكرية في المنطقة.

أرسل «كامل» الى «اسرائيل»، في الفترة ما بين ١٠ ديسمبر ١٩٦٤ و١٠ يناير ١٩٦٥، برقيات بشكل يومي تقريباً، بل واستغرقت احدى البرقيات ١٦ دقيقة، الأمر الذي أثار قلق المسؤولين في «اسرائيل».

وفي ١٨ يناير، ألقي القبض على إيلي كوهين. وقد كتمت سوريا الخبر لبضعة أيام حيث حاولت خداع «الموساد» بأن أجبرت إيلي كوهين على بث برقيات كاذبة وضع نصها الكولونيل سويداني. ولكن «اسرائيل» لم تقع في «الفخ»، حيث نجح ايلي كوهين في نقل حرف السر الذي يبلغ عن اعتقاله كما استطاعت أن تعرف من مصادر أخرى.

وفي ٢٤ يناير أعلن عن اعتقاله، وبخلاف معتقلين آخرين لم يسجن في سجن المزة في دمشق، وانما نقل الى «قابون» وهي قاعدة لواء المدرعات «اللواء ٧٠» الذي يقوده محمد عمران. وهو علوي من المقربين من صلاح جديد. واستمر التحقيق معه أربعة أسابيع، على أيدي أكفأ المحققين. وتشعب التحقيق معه حول مواضيع شتى، ماضيه، وكيفية تجنيده في جهاز المخابرات وعن المسؤولين عنه وكيفية عمله في دمشق، ومن هم شركاؤه، وهل أقام في دمشق شبكة تجسّس أم عمل منفرداً، وهل يعلم عن جواسيس آخرين في دمشق، ودول عربية أخرى، وغير ذلك من المواضيع.

أجاب إيلي كوهين على هذه الأسئلة بالتفصيل.

ازاء صمت دمشق على اعتقال كوهين في الأيام الأولى،

كتمت «تل أبيب» الخبر كذلك، ولكن عندما أعلنت سوريا في ٢٤ يناير نبأ الاعتقال، سارع «الموساد» الى تبليغ زوجته الخبر، وكان «سلمان» هو المخبر.

تقول زوجة الجاسوس الاسرائيلي: عندما ظهر «الملاك» عند مدخل البيت، أدركت أنه وقع ما كنت أخشى وقوعه، كان وجه «سلمان» عابساً والحزن في عينيه. قال لي: لقد أُلقي القبض على إيلي، وسألته، في سوريا؟ فقال:نعم. لم أنطق أية كلمة طوال عشر دقائق، وعدني «الملاك» بأن يفعل كل شيء من أجل إنقاذه، ولكن لكي تنجح هذه الجهود فقد طلب مني أن لا أدلي بأي تصريح للصحافيين.

بعد خروج «سلمان»، اتصلت زوجة الجاسوس بأبناء العائلة، وحالاً وصلت «أوديت» اخته البكر، فارتمت «ناديا» على كتفها وبكت قائلة: لقد اعتقل إيلي، ولن أراه الى الأبد. أما الأم صوفي، فكانت منضبطة حتى في مثل هذه الساعة، في حين ذهل «افرايم» وزوجته «رينه» ولم ينبسا ببنت شفة. وصل جميع أفراد العائلة باستثناء شقيقيه «ألبرت وموريس»، فقد كان «ألبرت» مجنداً في الجيش، وفي صباح الخامس والعشرين من يناير نشر في الصحف المحلية خبر قصير من راديو دمشق، جاء فيه ان جاسوساً اسرائيلياً اعتقل في دمشق. وبطلب من رئيس الحكومة ورئيس «الموساد» امتنعت جميع الصحف عن نشر اسمه أو أية تفاصيل عنه، ومع ذلك فقد اشعل الخبر ضوءاً أحمر في ذهن أخيه ألبرت. الذي قال: عندما قرأت الخبر، اتصلت بالبيت، فقيل لي ان الجميع عند زوجة إيلي، وحينها طلبت إجازة وعدت الى البيت حيث كان الوضع حزيناً وكئيباً، ولكن لم يكن لديّ ما أفعله هناك «سوى الصلاة من أجل نجاح الجهود لإنقاذه».

ويقول موريس: عندما اعتقل إيلي، كنت في دورة ضباط، وقد مرضت وادخلت المستشفى،وفي ٢٥/ ١ قرأت في الجريدة عن اعتقال جاسوس اسرائيلي. فعرفت ان هذا هو إيلي، عندها لبست ثيابي وهربت من المستشفى، وعندما وصلت مكاتب الوحدة (١٣١) رأيت الكآبة والذهول على وجوه الجميع، فذهبت الى الخزانة التي احتفظت فيها ببرقيات إيلي، فلم تكن هناك، سألت الزملاء عنها، ولم يجبني أحد، قلت لهم:إنني أعرف ان إيلي قد اعتقل، ولكن أحداً منهم لم ينطق بكلمة. فعرفت أنهم أمروا بالحفاظ على الصمت. دخلت الى مكتب «باناس» الذي حاول تهدئتي، قائلاً انهم يستوضحون الأمر.

أما زوجته، فقد أصيبت بصدمة عنيفة، انهارت على أثرها، وقد حاول زملاء إيلي تهدئتها والتخفيف عنها، وأن هناك مساعي حثيثة لانقاذه، «وان الكوماندوس الاسرائيلي يستطيع الوصول الى دمشق»، وان حكومة «إسرائيل» ستعيِّن أفضل المحامين للدفاع عنه، وستحثّ شخصيات عالمية كبيرة للتدخل من أجل إنقاذه. لكن الصدمة كانت قوية ولذا بقيت مرتعبة، ولذا ظلت صوفي والدة الجاسوس الى جانبها طوال الوقت. كانت تحلم به في الليل، وتشاهده عند مدخل الدار، وقد توجهت مع ألبرت الى «بصّارة» في «بات يام» لكي تتنبأ لها بعودة إيلي.

بدأت محاكمته في ٢٢ فبراير ١٩٦٥ في جو من الهستيريا الجماعية، واستغلت الصحافة العربية المناهضة لسوريا فرصة المحاكمة للتحريض ضد النظام هناك. فقد تناقلت ما أذاعته القاهرة وبغداد عن مدى تغلغل الجاسوس الاسرائيلي في أجهزة النظام السياسية والعسكرية، وعليه تحوّلت محاكمته الى محاكمة عربية للنظام. وقد نقل التلفزيون السوري بعد سبعة أيام وقائع من جلسة الافتتاح ولكنها كانت محررة بشكل لا يمس بالنظام، ومن الفقرات

التي نقلت على شاشة التلفزيون الفقرة التالية حول استجواب رئيس المحكمة صلاح الضلّي لإيلي كوهين:

الضلّي: هل تعرف سليم حاطوم؟

كوهين: لا، لم أره، ولم أتعرف عليه.

الضلّي: أنظر حولك، هل تستطيع التعرف عليه؟

كوهين: قد يكون ذلك الميجور الذي يجلس هنا، أنا لا أعرفه، هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها.

الضلّي: ماذا حدّثوك عن الميجور حاطوم؟

كوهين: قالوا لي انه ضابط شجاع، قاد فرقة الكوماندوس التي احتلت الإذاعة السورية، وبناية رئاسة أركان الجيش في دمشق.

الضلّي: أشيع في بغداد أنك تعرف سليم حاطوم، وأنه كان صديقك؟

كوهين: هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها. سله ان كان يعرفني.

الضللي: اسأل من؟

كوهين: حضرة الميجور.

الضلّي: ان هشام أبو ظهر رئيس تحرير «المحرر» يدافع عنك، ويقول أنك كنت عضواً في إدارة البعث. وأنك قررت أن تجري تصفيات في صفوف الحزب. وكامل مروة، رئيس تحرير «الحياة» هو أيضاً يحصل على أموال من «إسرائيل» ليدافع عنك. لا مجال للخوف عندك فكل هؤلاء العملاء يدافعون عنك، و«اسرائيل» تنفق الكثير من الأموال دفاعاً عنك.

كوهين: من هو إيلي كوهين في نظر إسرائيل؟؟؟

الضلّي: ان الصحافيين والعملاء والمأجورين يستغلون اسمك ليكسبوا، وقد حوّلوا الدفاع عنك الى استثمار، ما رأيك

بهؤلاء الصحافيين؟

كوهين: كلهم عملاء وخونة.

الضلّي: يكتبون أنك تعرف كل ضباط الجيش والزعماء، فكم من الضباط تعرف؟

كوهين: أعرف أربعة فقط، وعلى الأصح ثلاثة، الرابع هو الضابط عدنان الجابي، وقد قتل، ولهذا أعرف ثلاثة فقط.

ازاء رفض السلطات السورية السماح بالدفاع القضائي عن إيلي كوهين، قرر «الموساد» ارسال زوجته وأخيه الى باريس في محاولة يائسة لتجنيد الرأي العام العالمي لانقاذ الجاسوس الاسرائيلي. وعند وصولهما الى باريس التقت «ناديا» بالصحافيين وبالمحامي مارسيه، الذي حدثها ان السوريين لم يسمحوا له بمقابلة ايلي في السجن. اتصل مارسيه بسفير سوريا في باريس على أمل أن يستقبل «ناديا»، ولكن السفير رفض.

عادت زوجته الى «إسرائيل» بعد بضعة أيام، ولكن المساعي لانقاذه تواصلت وتضاعفت، فقد قدم «الموساد» اقتراحات الى الحكومة السورية لكي لا يحكم عليه بالاعدام، ولكن وصل الجميع في نهاية الأمر الى نتيجة ان المساعي يجب أن تتركّز على المستوى السياسي.

أوقفت جلسات المحكمة في ٦ مارس وكان التفسير الرسمي لذلك هو الاستعدادات للاحتفال بيوم ٨ آذار. ولكن السبب الحقيقي هو أن «حكام دمشق» اجتمعوا ليقرروا اما الاستمرار أو توقيف هذه «المحاكمة». فبرز في الجيش اتجاهان الأول برئاسة ودعم أمين الحافظ الذي طالب بمحاكمة تعطي للجاسوس الاسرائيلي

الحق في الدفاع عن نفسه قضائياً عن طريق محام أو محامين فرنسيين وغيرهم، وبالمقابل، طالب الاتجاه الثاني بقيادة صلاح جديد بمواصلة المحاكمة كما هي، وبدون أي انحراف عن المبادىء التي أقرت مسبقاً، وقد أخذ في الاجتماع بموقف صلاح جديد.

وفي اليوم نفسه، وصل الى دمشق «أدريان وولتزر»، السكرتير العام لعصبة حقوق الانسان البلجيكية، وقد استقبل هو والمحامي جاك مارسيه في مكتب وزير العدلية حسين مهنَّا، بحضور رئيس نقابة المحامين صلاح الركابي، قال مهنَّا «لوولتزر»، ان المحكمة العسكرية ضمن صلاحيات وزير الدفاع اللواء ممدوح جابر، فتوجه الاثنان الى جابر، الذي قال لهما ان سوريا التي تشربت الحضارة والثقافة الفرنسية تؤمن بمبادىء «مونتسكيو» بشأن فصل السلطات، وكممثل للسلطة التنفيذية فانه لا يستطيع التدخل في الشؤون القضائية. ثم توجه «وولتزر» الى رئيس المحكمة وطلب التحدث اليه ولكنه رفض، وعاد «وولتزر» الى بروكسل في ١٩ مارس.

في ١٧ مارس ازداد وضع الجاسوس الاسرائيلي سوءاً، فقد قررت سوريا الاسراع في عملية تحويل مياه نهر الأردن، ورداً على ذلك أمرت «إسرائيل» قواتها بوقف هذه الأعمال. فقد هاجمت الدبابات الاسرائيلية منطقة البانياس، وتحت حماية طائرات الميراج هدموا كل معدات وأدوات وتجهيزات المشروع، والمكوَّنة من تراكتورات وبلدوزرات ومعدات حفر وشاحنات وحتى خيم العمال. كانت الإصابة دقيقة بشكل مدهش، وقد وعد مقاول المشروع بأن يواصل العمل، أما القادة السوريون فانشغلوا في إيلي كوهين.

في ١٩ مارس، أذاع التلفزيون السوري وقائع الجلسة الختامية للمحكمة، وفي نهاية البث، أعلن المذيع السوري ان المحكمة قد انتهت، وان الحكم سوف يصدر في موعد لاحق. وفي اليوم التالي،

غادر سوريا رئيس المحكمة صلاح الضلّلي متوجهاً الى الأردن على رأس وفد عسكري، ومنها عاد الى دمشق في ٢٩ مارس حيث انكبَّ في مكتبه على كتابة صيغة القرار.

وصدر القرار في ٣١ مارس والذي يدينه بجميع التهم الموجهة اليه وقد بثّ التلفزيون السوري وقائع جلسة قراءة القرار.

في نفس اليوم، توجه محاميا ايلي كوهين «بول اريفي وجاك مارسيه» الى منظمة الحقوقيين الدولية وطلبا تدخلها لاعادة محاكمة كوهين. مدعين انهما حُرما من حق الدفاع عنه. كما توجه المحاميان الى الرئيس أمين الحافظ الذي لم يرد عليهما.

وهكذا، حام شبح الموت فوق رأس كوهين الأمر الذي دفع رجال «الموساد» للبحث عن سبيل لإنقاذه. واثر فشل مختلف المساعي السياسية بدأت «اسرائيل» باختبار امكانية تبادل الجواسيس، ففي ٦ ابريل ١٩٦٥ سافر جاك مارسيه الى دمشق ليقترح على السوريين مبادلة إيلي كوهين بأربعة عشر سورياً وفلسطينياً كانوا معتقلين في «إسرائيل» بتهمة التجسس لصالح سوريا. وفي اليوم التالي لوصوله الى دمشق، اجتمع مارسيه بالوزير وليد طالب الذي أبلغ المحامي بأنه وافق على الالتقاء به، من باب المجاملة فقط، وبشرط المحافظة على سرية اللقاء. وأكد أنه بما أن سوريا لا تعترف «باسرائيل» فمن الواضح انها لا تستطيع التفاوض معها على تبادل الجواسيس. ومع ذلك فان عليه التشاور مع الرئيس أمين الحافظ. وفي ٨/ ٤ أبلغ طالب جاك مارسيه بأنه مخوّل لسماع تفاصيل العرض الاسرائيلي فقط. فقدم مارسيه قائمة بأسماء أربعة عشر سورياً وفلسطينياً، بينهم خمسة اعتقلوا في حيفا في ٣/٧، وأربعة اعتقلوا في نيسان ١٩٦٤ بتهمة التجسس لصالح سوريا. ومنهم عمر محمود وعريفة والذي اعتقل في ٦ نوفمبر ١٩٦٤ وحكم

بالسجن لمدة عشر سنوات، وحسين علي عبيد رمضان وحسين علي ناصر كسلاوي، ومحمود بكر حجازي، من منظمة «فتح» وهو أول معتقل من المنظمة في «إسرائيل».

قال طالب: ان القائمة هامة جداً، ولكنهم جميعاً لا يساوون «نصف» إيلي كوهين، وفي ٩ ابريل عاد مارسيه الى باريس والتقى «بيوسف هداس» المستشار السياسي للسفارة الاسرائيلية وقال له: ان انقاذ إيلي كوهين يعني موت أمين الحافظ وسقوط النظام السوري.

ازاء فشل مهمة مارسيه، جرى استنفار الجهاز الدبلوماسي «الاسرائيلي» للعمل فوراً في جميع أنحاء العالم وتوجهت شخصيات مختلفة الى حكومة دمشق، وطلبت العفو عن إيلي كوهين، وكذلك فعلت منظمات دولية أخرى. وقد تركز النشاط الاسرائيلي في باريس، بل وتدخّل رئيسان سابقان للحكومة الفرنسية هما أنطوان جيني، وادجار فور.

كما جمعت في باريس تواقيع عشرات نواب البرلمان الذين أرسلوا الى الرئيس السوري عريضة يطالبون فيها بالعفو عن إيلي كوهين، كما توجه محامو ايلي كوهين، الى الرئيس ديغول باسم زوجته «ناديا» وطلبوا منه التدخل لدى الرئيس السوري، بل وتدخل البابا نفسه باسم العالم المسيحي[١]. كما توجه الى الرئيس السوري كل من جورجيو فيريه، رئيس بلدية باريس والملكة اليزابيث، ورئيس حكومة بلجيكا، ورئيس حكومة كندا السابق جون ديفنيبكر، كما وقع ٢٢ عضو في البرلمان البريطاني على عريضة طالبوا فيها

---

(١) نحن نضع هذا الكلام برسم قداسة البابا ودولة الڤاتيكان فهم أولى منّا بالردّ عليه.

بإعادة محاكمة إيلي كوهين، وفي الولايات المتحدة، فانه إضافة لتدخل رؤساء الدولة السابقين والحاليِّين، تدخل زعماء الجالية السورية واللبنانية، وكذلك فعلت شخصيات سياسية وفكرية في دول اسكندنافية، ولكن دون جدوى أيضاً[١]. مع تزايد الضغط الدولي لمحاكمة إيلي كوهين ازداد الضغط المضاد من العالم العربي فقد ورد في مقال نشر يوم ١٢ ـ ٤ في صحيفة «المحرر» اللبنانية: «الجاسوسان الأتاسي والحاكمي حكم عليهما بالاعدام. بالرغم من وقوف أميركا خلفهما، فلماذا لم يعدم إيلي كوهين حتى الآن؟؟ هل يحتفظ به السوريون لمبادلته فيما بعد؟؟».

في ٢٣ ابريل «نيسان» اجتمع مارسيه في باريس بممثل كبير للموساد والذي كلفَّه بالسفر الى دمشق، ليعرض على مدير

(١) بوسع المرء أن يدرك كم كان كوهين ثميناً بالنسبة لاسرائيل، فقد قدم لها أقصى جهد يمكن أن يقدمه جاسوس، وعليه، كان لا بد لها أن تحاول إنقاذه بكل وسيلة ممكنة... ليس نظير خدماته فقط، بل تشجيعاً لأمثاله من الجواسيس ليشعروا بالطمأنينة، فيما لو اعتقلوا ان محاولات لانقاذهم ستبذل بشتى الوسائل، ومنها استغلال الرأي العام العالمي، والتي برع العدو الصهيوني في إتقانها.
على ان الملفت هنا، درجة الجنون الغربي في محاولاتهم لانقاذ كوهين، صحيح ان هناك اعرافاً دولية، وان قوانين سوريا تسمح بإعدامه بعد إدانته، وهذا لم يكن خرقاً للقوانين الدولية كما ادعت بعض الدول. ولكن وجود اسرائيل نفسه هو خرق للقانون الدولي وللعلاقات الانسانية التي تتجاهلها اسرائيل والغرب، وقد تناسى الغرب هذه الخروقات، بل ولم يعتبرها في يوم من الأيام، واستيقظت حقوق الانسان، في ضمير الغرب فجأة لانقاذ كوهين من مصيره الطبيعي. حتى البابا أدلى بدلوه باسم الدين والعالم المسيحي، الى جانب الساسة الغربيين، هؤلاء الساسة الذين كانت اسرائيل، وما تزال، بالنسبة لهم استثماراً رأسمالياً كولونيالياً مجدياً ومثمراً، بحفاظها على مصالحهم، وبكونها كرباج قمع حركة التحرر العربية.

المخابرات السورية صفقة لا يمكن رفضها في نظر «الموساد»، وهي مقابل عدم اعدام إيلي كوهين، يلتزم جهاز المخابرات الاسرائيلي بتوفير معلومات دقيقة عن محاولة انقلاب عسكري يجري التخطيط له ضد نظام أمين الحافظ.

كما أوضح مندوب «الموساد» لمارسيه، بأن «الموساد» لا تثق بكلام سويداني ولا بإخلاصه لأمين الحافظ. ولكن في هذا الوقت المتأخر لا يمكن الوصول الى الرئيس أمين الحافظ الا عبر سويداني، وقيل لمارسيه ان بامكانه تقديم الاقتراح للمخابرات السورية باسم المخابرات الاسرائيلية، ولكن دون تقديم التفاصيل للمحامي، وانما بحفظها في صندوق مقفل في قبرص. وفي اليوم الذي يصل فيه مارسيه الى دمشق يسافر مندوب «الموساد» الى قبرص. واذا تم كل شيء طبقاً للاتفاق يفتح الصندوق في نيقوسيا وتقدم المعلومات الى المندوب الذي تعينه الحكومة السورية.

في ٢٥ ابريل، سافر مارسيه الى دمشق عن طريق بيروت، وفي فندق «الكزار» التقى بهمزة الاتصال في لبنان ويدعى «خوري» والذي أبلغه ان التوتر يسود دمشق، وان محاكمة إيلي كوهين قد سمّمت الجو هناك. فالجنرال صلاح جديد يهاجم سليم حاطوم بسبب علاقته مع كوهين، وحاطوم يتهم جديد وزملاءه باستغلال محاكمة كوهين للسيطرة على الحزب والدولة... وعلى أي حال فان هذا الوضع الشائك حال دون وصول مارسيه الى دمشق الا بعد بضعة أيام حيث تمكن من الحصول على تأشيرة دخول.

في ١ مايو ١٩٦٥، عند الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة ظهراً اجتمع مارسيه بالكولونيل سويداني في قصر المغتربين

بدمشق. قال مارسيه: ان «اسرائيل» تدرك ان المعركة على إيلي كوهين هي معركة على النظام في سوريا، ولذلك فهي على استعداد لتقديم العون لأمين الحافظ من خلال تقديم معلومات عن مخطط لانقلاب مضاد له. وهي لا تطلب العفو وانما تعهّد بأن لا يعدم.

سأل سويداني ساخراً، هل تؤمن «اسرائيل» حقاً بأن سوريا قد تطلق سراح كوهين؟ إن تبادل الجواسيس في العالم ظاهرة مقبولة، ولكن «اسرائيل» خارجة عن القاعدة. فقال مارسيه: انه لا يطالب باطلاق سراحه ولكن استبدال حكم الاعدام بالمؤبد.

وعندما قال سويداني انه يشك اذا كان الرئيس أمين الحافظ سيوافق على تخفيف الحكم خوفاً من ردود الفعل في سوريا والعالم العربي. قال مارسيه: يمكن أن تشنقوا شخصاً آخر[١].

قال سويداني، أنا شخصياً أصرّ على اعدام إيلي كوهين، وقد أعربت عن ذلك وسوف أعرب عنه كذلك أمام رئيس الجمهورية، أمين الحافظ، وبالطبع اذا قرر الرئيس تخفيف الحكم عنه فان قيادة البعث لن تدع إيلي كوهين يفلت حياً. وعندما سئل لماذا يصرّ على اعدام كوهين، قال سويداني: ان إيلي كوهين ضلّل القيادة السورية عدة سنوات، وشكل خطراً على أمن سوريا، ولذا، فإن حكمه هو الموت، لسنا بحاجة الى معلومات من «إسرائيل»، حتى وان كانت هناك محاولة للانقلاب، أفضل الانقلاب على اطلاق سراح إيلي

---

(١) هنا أيضاً تتضح الصورة الفعلية، أو جوهر الديمقراطية الغربية والتبجح بحقوق الانسان، فطالما هناك فرصة لانقاذ الجاسوسس الكبير، فان شنق أي انسان بريء أمر عادي وطبيعي جداً. فحقوق الانسان بالمعنى الغربي لا تشمل كل انسان، وانما تشمل فقط رجال الأنظمة وأدواتها المحليين وفي الخارج وما يخدم مصالحها ويحقق سياساتها وأهدافها.

كوهين. ان سوريا لا تنفذ، ولا تدخل في صفقات مع ما يدعى «إسرائيل» الجسم الغريب والمؤقت في منطقتنا وبعد ساعتين أخبر مأمون الأتاسي مارسيه ان اقتراحه مرفوض، وتبيَّن فيما بعد ان أمين الحافظ لم يكن يومها في دمشق، ولذلك فان الرد جاء على ما يبدو من صلاح جديد. وقد نشر في اليوم نفسه قرار الحكم. وكان النص كالتالي: «بما ان الاثباتات والحقائق التي قدمت الى المحكمة قد أقنعتها دون أي شك ان المتهم الياهو بن شاؤول كوهين، انتحل اسم «كامل أمين ثابت» ودخل الى مناطق عسكرية مغلقة بهدف الحصول على معلومات تخدم العدو، وبما أن دخول هذه المنطقة أمر عقوبته الموت، حسب المادة ١٥٨ و١٥٩ من قانون الأحكام العسكرية، وبما أن الحصول على معلومات من شأنها إفادة العدو، ولأنها معلومات سرية كجزء من أمن الدولة، فان تسريبها للعدو يستوجب الحكم بالاعدام. وفقاً للمادة ٢٧١ و٢٧٤ من قانون القضاء العسكري. ولذا، فانه وفقاً لتعليمات الأمر الدستوري رقم (٦) من تاريخ ٧/ ١/ ١٩٦٥. فقد توصلنا الى أن الياهو كوهين مذنب، والحكم عليه هو الاعدام شنقاً».

صدر القرار في ١/ ٥/ ١٩٦٥، ووقع عليه صلاح الضلّلي رئيس المحكمة العسكرية الخاصة. وفي ٨ أيار قرأ الحكم، وعندما سمعه إيلي تسمّر في مكانه ولم يحرّك ساكناً.

في ١٣ أيار كان واضحاً ان مصير كوهين قد تقرر، وعندها قامت طائرات اسرائيلية بالاغارة على مشروع تحويل مياه نهر الاردن وقضت على جميع الأجهزة في الموقع.

حبل المشنقة

يوم الاثنين ٥/١٧ تقرَّر مصير كوهين نهائياً. فبعد اقصاء القيادة التقليدية المعتدلة لحزب البعث، وبعد تعزيز مكانة صلاح جديد وقّع أمين الحافظ قرار المحكمة بإعدام «كبير جواسيس «إسرائيل» في العالم العربي». وكان صلاح جديد هو الذي فرض على أمين الحافظ وضع نهاية للقضية بقوله: «كل يوم يمرّ يعرّضنا لهجمات جديدة من الدول العربية، وضغوط متزايدة من أصدقاء «إسرائيل» في العالم، كما أنه بعد ضرب مشروع المياه في البانياس فان اعدام إيلي كوهين هو الوسيلة الوحيدة في أيدينا لتهدئة الخواطر في دمشق».

نُقل ايلي كوهين الى سجن المزة بدمشق. وفي منتصف الليل انتشرت اشاعة ان الجاسوس الاسرائيلي سيشنق مع طلوع الفجر.

فقد حاصر الجيش ساحة المرجة وأغلق الشوارع المؤديّة اليها. وفي مركز الساحة أقيمت مشنقة وضعت حولها حراسة مشددة ونصبت كاشفات أنوار موجهة لخدمة الصحافيين السوريين والأجانب.

في ١٨ مايو ١٩٦٥، أذاع راديو دمشق نبأً رسمياً يفيد ان إيلي

كوهين سيعدم قريباً، ففي نشرة الاخبار الأولى من صباح ذلك اليوم وجّه المذيع دعوة الى أهالي دمشق لمشاهدة شنق الجاسوس الاسرائيلي. وفي نفس الساعة احضر إيلي كوهين الى مقر شرطة المرجة، كانت يداه مقيدتين وقد لبس بدلة رمادية كان قد لبسها يوم اعتقاله في ١٨ يناير ١٩٦٥. وفي محطة الشرطة انتظره الكولونيل صلاح الضلّلي، وقائد شرطة دمشق، وطبيب عسكري. ومدير مكتب رئيس الدولة، ونقيب الصحافيين وثلاثة صحافيين سوريين وأجانب. قرأ الضلّلي قرار المحكمة وسأله ان كان لديه ما يقوله. فقال بصوت مخنوق: «انه نادم على ما فعله وليس لديه ما يضيفه... وكان واضحاً أنه تورَّط في عملية نتيجة طموحاته وتطلعاته غير المنطقية. وفي هذه اللحظات وصل الحاخام نسيمر، حاخام اليهود في سوريا، لكي يقرأ فصلاً من التوراة لإيلي كوهين. وعندما التقاه انفجر إيلي باكياً، وطلب منه أن يبعث تحياته الى أهله وأبناء عائلته».

وبعد تأدية الصلاة سأله رئيس المحكمة، ما هو طلبه الأخير، فأجابه انه يرغب في كتابة رسالة الى زوجته وأولاده.

وكان إيلي قد كتب ثلاث رسائل قبل إعدامه.

الرسالة الأولى:

الى ناديا وأولادي الأعزاء...

أكتب لكم هذه الرسالة لأبلغكم أنني اضطررّت للقيام بأعمال التجسس نتيجة ضغوط كبيرة فرضتها عليَّ السلطات الاسرائيلية لأنني لم أعثر على أي عمل آخر. واليوم عرفت الحقيقة والمصير القاسي لكل معتد، أدعوكم الى ترك «إسرائيل» لتتمتّعوا بالحرية التي

تنعم بها جميع الشعوب... الأمر غير المتوفر في «إسرائيل».
حافظوا على أنفسكم لكي لا يحدث لكم ما حدث لي...

الرسالة الثانية:

الى زوجتي ناديا وأولادي الأعزاء...

أكتب اليكم هذه الرسالة لأخبركم أنني اضطررت للقيام بهذا العمل التجسسي نتيجة ضغوط كبيرة فرضتها عليَّ السلطات الاسرائيلية، بعد أن حرمتني من وسائل الحفاظ على وجودي. واليوم عرفت الحقيقة، وعرفت ما هي نهاية الانسان الشرير، وكل معتد...

أدعوكم: الى ترك «إسرائيل»، والعيش خارجها لكي تتمتعوا بالحرية التي تتمتع بها كل الشعوب، حافظوا على أنفسكم ولا تفعلوا ما فعلت لأن النهاية قاسية جداً.

الرسالة الثالثة:

الى زوجتي ناديا وأولادي الأعزاء...

أبلغكم بهذا انني كنت مجبراً على القيام بهذه الأعمال نتيجة لضغوط فرضت عليّ. أرجو أن تبلغي الجميع بهذه الحقيقة، لقد اهتم الشعب السوري الطيب بي منذ اللحظة الأولى، وحتى هذه اللحظات، قولي لأولادي ان يخرجوا من الظلمات الى النور. وان ينظروا الى الحقائق كما هي وان يعرفوا الطعم الحقيقي للحرية ويعيشوا في جو نظيف وغير ملطخ. أخرجوا من هذه الدولة لتشاهدوا النور. اعملي كل ما بوسعك ليتصرف الأولاد في حياتهم

باستقامة، أطلب أن تهتمي بنفسك وبهم. وقولي لأبناء عائلتي أن يخرجوا الى العالم ليعرفوا الحرية على حقيقتها. سلام لك ولأولادي ولكل أبناء العائلة. أطلب منك أن لا تضيِّعي الوقت حزناً على الماضي، فكري في المستقبل، قبلاتي لك ولصوفي وايريس وشاؤول وكل أبناء العائلة. لا تنسي أحداً منهم. سلامي الى الجميع، ولا تنسوا أن تصلّوا على روح والدي وروحي قبلاتي الأخيرة لكم جميعاً والسلام.

إيلي كوهين ١٨/ ٥/ ١٩٦٥

وأما الرسالة الأخيرة، فكانت على مرأى الحاخام والصحافيين. وهذا نصها:

الى زوجتي ناديا وأهلي الأعزاء...

أكتب لكم هذه الكلمات الأخيرة، وأوصيكم أن تحافظوا على صلتكم ببعض دائماً، وأرجوك يا ناديا أن تسامحيني. وان تهتمي بنفسك وبالأولاد وتحافظي عليهم، وتثقفيهم تثقيفاً كاملاً. وألاّ تحرمي نفسك أو تحرميهم من أي شيء، وكوني على صلة دائمة مع أهلي، ويمكنك الزواج من غيري لكي لا يُحرم الأولاد من أب. ولك الحرية الكاملة في ذلك، وأرجوك أن لا تمضي وقتك في البكاء على شيء مضى بل فكري في المستقبل دائماً، واليك آخر قبلاتي والى صوفي وايريس وشاؤول وجميع العائلة وبشكل خاص الوالدة وأوديت وعائلتها وموريس وعائلته وألربت وعائلته، ولا تنسي جميع عائلتك العزيزة الصلاة على روح والدي وعلى روحي، وإليكم جميعاً قبلاتي الأخيرة والسلام. إيلي كوهين.

١٨/ ٥/ ١٩٦٥

بعد كتابة الرسائل، سجل الكولونيل الضلّلي بروتوكلاً احتوى على كلمات كوهين الأخيرة.

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً، توجه شرطي الى ايلي كوهين وربط يديه وراء ظهره ووقف على طول الطريق صفان من الجنود. خيّم صمت رهيب على المكان، كانت تقطعه بين لحظة وأخرى أصوات آلات التصوير. توقّفت «المسيرة» بالقرب من المشنقة، وتم لفّه بثوب أبيض ثم أمر بالصعود على الكرسي ولُفَّ الحبل على عنقه، وأزيح الكرسي من تحت قدميه فأخذت جثته تتأرجح في الهواء...

وهذه هي النهاية المتوقعة لكل جاسوس.

بعد ٩٠ ثانية، أكد الطبيب وفاته، فتقدم أبو سلمان وألصق قرار الحكم على ثوبه، وظلت الجثة معلقة لست ساعات حيث شاهدها عشرات الألوف من أهالي دمشق. وفي العاشرة صباحاً نقلت الجثة الى مقبرة اليهود في دمشق، حيث قام ثلاثة بحفر قبره ودفنه.

أثار اعدام إيلي مخاوف اليهود في سوريا، حيث خشوا أن تنتقم منهم سوريا على الرغم من عدم وجود أي اتصال لكوهين باليهود هناك. كما تبين في التحقيق... ولكن ذلك لم يحدث.

أما في بيت إيلي كوهين، ففي ذلك اليوم استيقظت والدته كعادتها في الخامسة صباحاً، وفتحت الراديو لتستمع الى النشرات الاخبارية من إذاعة دمشق، وعندما سمعت الخبر انفجرت صارخة: لقد شنقه «الأوغاد». وأخذت تلطم رأسها بالحائط وعندما أمسكوا

بها سقطت مغشياً عليها. وأما الصدمة الأعنف فقد سقطت على ناديا التي قالت: «كانت تلك الليلة أقسى الليالي، فقد كنت أهذي طول الوقت، كان إيلي معي طوال الليل، وكنا نمارس الحب، كانت تلك أجمل ليالي حياتي، كم تمنيت أن لا يطلع الفجر، لم أغمض عيني إلا عند الرابعة صباحاً، بعد صحوة قصيرة، وفي الخامسة أيقظني صراخ حماتي، لقد دخلوا غرفتي ليخبروني ان إيلي قد أعدم، ولكنني طردتهم من الغرفة، وقلت: كيف يمكن أن يشنقوه وهو راقد بجانبي، أردت أن أبقى على سريري بجانبه، ولكنني بدأت أدرك رويداً رويداً، أدركت أنه لن يأتي ثانية وأنه ليس معي. وبدأت نادية تصرخ، إيلي، إيلي، ماذا فعلت بي؛ لقد وعدتني أن تعود ولكنك لم تفعل».

بعد يومين، أي في ٢٠/ ٥/ ٦٥، بعث المحاميان الفرنسيان رسالة استنكار مفصَّلة الى الرئيس أمين الحافظ، وطلبا باسم ناديا أرملة إيلي أن تنقل الجثة لتدفن في «إسرائيل».

خلال أيام الحداد السبعة. وصل الحاخام «غورين» فصرخت ناديا في وجهه: «لقد قتلتم زوجي، لا أريد أن أراكم»، ووصلت جولدا مائير لتعزي به، فقالت لوالدته، «ان ابنك بطل عظيم، فصرخت في وجهها: لماذا أرسلتم ابني يموت بين العرب».

ومنذ تلك الفترة، أصبح إيلي كوهين في «اسرائيل» بطلاً قومياً، وأطلق اسمه على شوارع عديدة في القرى والمدن وعلى مدارس ومراكز ثقافية مختلفة.



في هذا الكتاب

"كامل أمين ثابت" أو إيلي كوهين هو أخطر جاسوس إسرائيلي عرفه العالم العربي حتى الآن وقد بدأ عمله التجسسي في مصر.

كوهين من مواليد الإسكندرية بتاريخ ١٩٢٤/١٢/٢٦ غادر إلى "إسرائيل" في صيف ١٩٥٥ حيث التحق بدورة جاسوسية عاد بعدها إلى مصر ولكن السلطات المصرية أبعدته في ٢٩ يناير ١٩٥٧ إلى إيطاليا ومنها توجه إلى "إسرائيل".

جنّده جهاز "الموساد" للعمل في سوريا بتاريخ ١٩٦٠/٥/٢٤.

في ٢٠ يناير ١٩٦٢ وصل إيلي كوهين إلى دمشق وقدم نفسه كتاجر يهتم بتصدير المنتوجات السورية إلى أوروبا، وكسوريّ متحمّس للقضاء على إسرائيل وخلال الفترة من ٢٠ يناير ١٩٦٢ وحتى ١٨ مايو ١٩٦٥ وهو يوم إعدامه عمل كجاسوس نشيط "لإسرائيل" وتغلّغل في بعض الشخصيات السورية آنذاك وقدم معلومات دقيقة عن القوات السورية حيث استطاع من خلال علاقاته من زيارة الجبهة أكثر من مرة.

ترجمة وإعداد
مركز دراسات
الخليج ـ لندن

مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر ـ ص.ب: ٢٧١٠ ـ هاتف: ٤٤٤٤٠٠ ـ دبي ـ أ.ع.م.
AL BAYAN PRESS, PRINTING & PUBLISHING EST.- P.O. BOX: 2710 - TEL: 444400 - DUBAI - U.A.E.